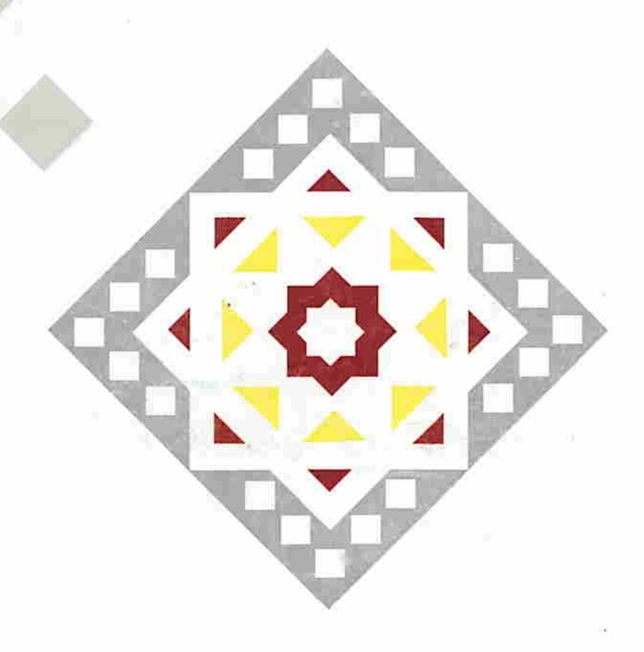
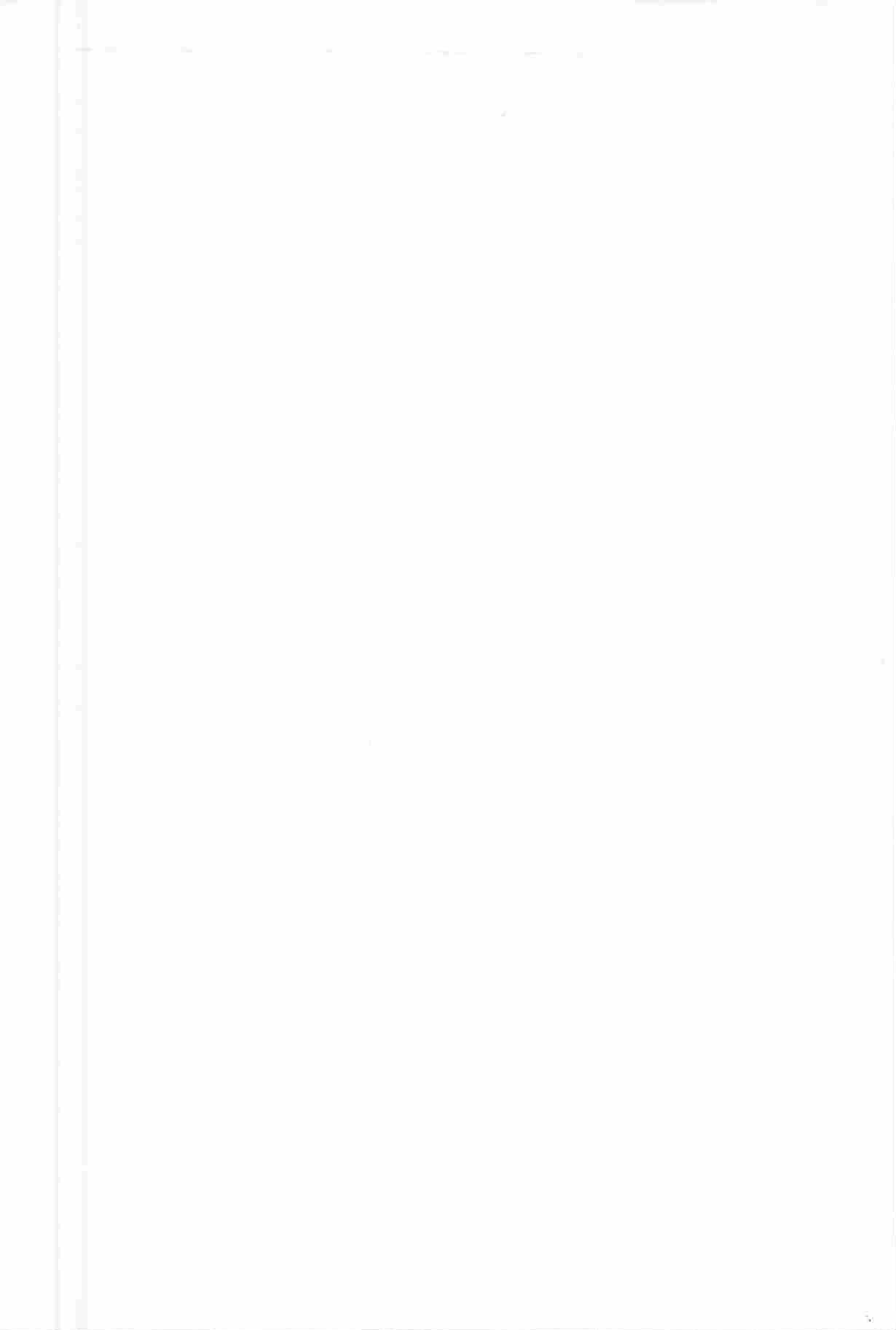



جمال البنا

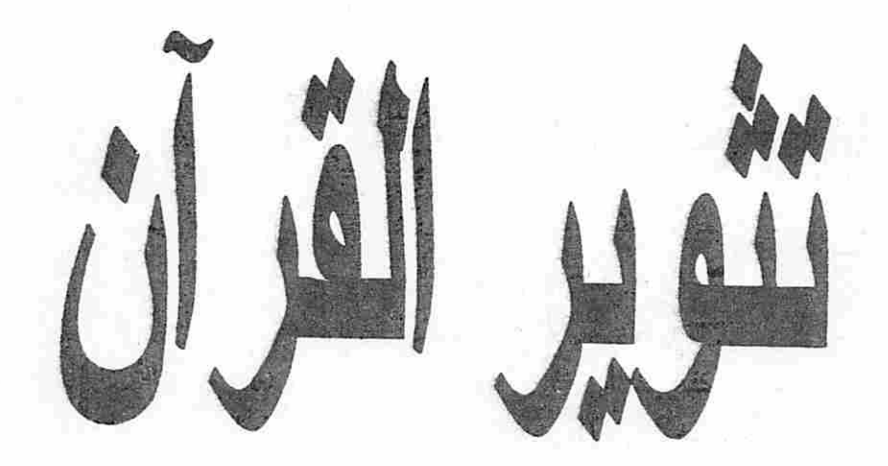
# تثوير القرآن



دار الفكر الإسلامى



جمال البنا




دار الفكر الإسلامي

١٩٥ شارع الجيش - ١١٢٧١ القاهـرة - هاتف وفاكس : ٥٩٣٦٤٩٤

بريد الكمبيوتر: e.mail: gamal_albanna@infinity. com.eg

موقع الإنترنت: http://www.islamiccall.org

## الثورة فى القرآن والحديث

جاءت إشارة إلى أحد اشتقاقات الكلمة فى القـــرآن الكريـــم عندما قال ﴿ .. وأثاروا الأرض وعمروها ﴾ وفسر صاحب معجـــم ألفاظ القرآن كلمة " أثاروا " أثار الأرض حرثـــها وشـــقها وقلبـــها للزراعة أو لغيرها كاستخراج المعادن أو استنباط الماء .

وفى الحديث جاء تعبير " ثوروا القرآن " و " أثيروا القـــرآن " قال مؤلف " مجمع بحار الأنوار " من أراد العلم فليثـــور القـــرآن أى لينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته. وأثيروا القـــــرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين " ويستثير فيـــها مـــن الفوائـــد. أى يستخرج . { ص ١٤٨ ج١ }

# الفصل الأول

# عن الثورة بصفة عامة

---

فى كتابى الموعود "ترشيد النهضة [1] " الذى كتبته فى أغسطس سنة ١٩٥٢ وقدمته بكل الحب و"العشم" لضباط ٢٣ يوليو سنة ٥٢ أوردت تعريفاً سهلاً سائغا، بعيداً عن شنشنة الأكاديميين عن الثورة، **فقلت ...**

**" الثورة حركة تقوم على نظرية وتستهدف التغيير وتطبقها – أو على الأقل تشترك فى تطبيقها – الجماهير ..."**

---

(١) كتبت هذا الكتاب فى خلال الأسابيع الأولى التى تلت انقلاب ٢٣ يوليو وكان إسمه بالكامل "ترشيد النهضة: دراسة للانقلاب العسكرى فى مصر ونظرة عبر المستقبل المصرى" وأردت به تقديم الرأى والنصح وأهديته إلى الأبطال "محمد نجيب وزملاته لكى يظلوا أبطالا وحتى لا يكون الفجر الكاذب" وكان الفصل الأول فيه تحليل لحركة ٢٣ يوليو وهل هى انقلاب أو ثورة، وانتهيت إلى أنها انقلاب وليست ثورة، وفى الفصل الثانى عالجت فكرة هل يمكن أن يتحول هذا الانقلاب إلى ثورة، وفى الفصل الثالث " البحث عن عقيدة " ثم فى الفصل الرابع "حزب من نوع جديد" وعندما كنت بصدد طبع الفصل الخامس فوجئت بعربة البوليس تهاجم المطبعة وتصادر "الملازم" وتطلب إلى إيقاف الكتابة، وكانت المطبعة ترسل كل ملزمة يتم طبعها إلى السلطات التى عكفت على دراسته. وعندما أتمت قراءة الفصل الأول وأن ما حدث فى ٢٣ يوليو انقلاب وليس ثورة. جن جنونهم وأصدروا أمرا بالمصادرة ولكنى كنت قد وصلت إلى الملزمة الخامسة. وعقب المصادرة قابلت كبير الرقباء وكان البكباشى أنور السادات فذكر لى أن أربعة من الضباط قرأوا الكتاب كل على حده ورأوا أن الكتاب مما لا يجوز نشره، ولو كان لدى ستة جنيهات قيمة رسوم قضية لرفعتها، ولكن الكتاب كان قد جعلنى مفلسا، وهكذا قضى على ترشيد النهضة ووئد وهو فى المهد، ولم يذكر بكلمة فى الصحف العامة حتى أزاحت مجلة القاهرة هذا السر فى العدد ١٨ الموافق ٢٠٠٠/٨/١٥ م .

فإذا حدثت حركة دون أن تكون لها نظرية فإنها تكون انقلابا، وانتفاضة، أو انبعاثه الخ... ويجب أن يلحظ أن هناك فرقا بين نظرية أصيلة ذات فكرة محورية تنطلق منها التفاصيل، وبين نظرية ملفقة تأخذ من هذه النظرية أو تلك.. أو حتى بدون نظرية ولكن لتحقيق مطالب لأن تحقيق هذه المطالب يمكن أن يحقق دون حاجة إلى نظرية، بانقلاب، أو انتفاضة أو ضغط الخ ...

والشرط الثانى للثورة أن تستهدف التغيير الكلى أو الجذرى وليس الإصلاح الجزئى، أو المرحلى أو التدريجى لأن هذا كله يمكن الوصول إليه دون حاجة إلى ثورة .

وأخيرا فيجب فى الثورة أن تساهم الجماهير عمليا وفعليا فى تحقيقها، بحيث لا تأتى من أعلى، من رئاسة أو من ملك أو تكون "خطة" يضعها الوزراء والخبراء فى مكاتبهم ودور بحثهم، ويطالب الموظفون والمسئولون بتطبيقها كل فى حدود اختصاصه. إن هذه الصورة لا يمكن أن تكون ثورة .

وافتراض توفر هذه المقومات الثلاثة للثورة يخرج من إطار الثورة معظم الانتفاضات والهبات التى قامت بها فئات مضطهدة بدءا من ثورة اسبارتاكوس قبل الميلاد حتى ثورة "اسبارتاكوس" وهو الحزب الذى كونته روزا لوكسمبورج فى ألمانيا سنة ٩١٨، وما بين ذلك ثورات الفلاحين فى إنجلترا وألمانيا فى القرن الرابع عشر والسادس عشر، ومثلها ثورة زنج البصرة فى القرن السابع الهجرى ..

وكذلك كل الانقلابات العسكرية التى حدثت فى الدول العربية من الثلاثينات حتى الخمسينات، وقام بها ضباط ولم يستطع أصحابها أن يجدوا لها اسما يدل على هويتها فاستعاروا لها أسماء الشهور التى قامت فيها. مثل انقلاب تموز أو فاتح سبتمبر الخ...

فهذه كلها انتفاضات أو قومات أو انقلابات توفر فيها عنصر واحد أو عنصران من مقومات الثورة دون توفير البقية، ومن ثم فلا تعد ثورات،

وربما كان الاستثناء البارز منها قومة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ التى بدأت انتفاضة وانتهت ثورة - وتوضيح هذا يضيق عنه المجال ..

وليست الثورة شيئا سعيدا، محبوبا تتقبله النفوس، وقد لا نحب الثورة، أو لا نريدها، وقد نضمر لها كراهية أو عداوة أو عزوفا، ولكن هذا لا ينفى أن الثورة تصبح ضرورة عندما تتجمع أسبابها الموضوعية، والثورة موجودة فى الطبيعة فى البراكين والزلازل، وموجودة فى "الأحياء" فى الطفرة.. كما توجد فى التغييرات النوعية للعناصر بتأثير الحرارة أو البرودة الخ...

وبالنسبة للمجتمع فإن الثورة تصبح ضرورية عندما تتراكم الأخطاء تراكما يجعل الإصلاح التدريجى والجزئى مستحيلا أو حتى لو كان ممكنا فإنه سيهدر وقتا ثمينا يجعلنا فى موقف التخلف نفسه الذى كنا فيه قبل الإصلاح، وقد يصل التراكم والتعقد درجة يستحيل الحل ويتحتم القطع .

وقد تحدث الثورة نتيجة لهزيمة قاضية، أى تقضى على العهد وتأتى بعهد جديد كما حدث فى روسيا وألمانيا وإيطاليا وتركيا أعقاب هزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى. إذ حدثت فيها - على التعاقب - الثورة الاشتراكية/ البلشفية، وجمهورية فايمار ثم الهتلرية، والفاشية وثورة اتاتورك التى كانت ثورة فى نتائجها وإن كانت عسكرية فى أساليبها .

وقد تحدث الثورة نتيجة للتخبط الذى تصاب به الدولة نتيجة سلسلة من السياسات الفاشلة والمتناقضة بحيث تتبهم أمامها المعالم وتتملكها الحيرة والتردد والفوضى فلا مناص من الثورة .

وليس من الضرورى أن تتراكم الأخطاء وتأخذ شكل التعقد الذى يتطلب القطع، لا الحل. فقد يكفى أن تصاب دولة بدرجة من التأخر والتخلف - لأسباب معينة - وتريد أن تستدرك هذا التخلف، وفى هذه الحالة تصبح الثورة هى الحل الوحيد لأن الإصلاح التدريجى العادى سيتطلب وقتا يزداد فيه التخلف، ومن شأن المتخلف إذا أراد استدراك تخلفه أن

يجرى لا أن يسير، لأن من يريد اللحاق به ليس واقفا، بل هو يسير أيضـا، وهو عادة يسير بسرعة أكبر مما يستطيع المتخلف أن يسير بها. فى هـذه الحالة فإن الجرى نفسه لا يجدى ويصبح من الضرورى القفز. أى الثورة

---

**إن الثورة تصبح ضرورية ولازمة لأنها - وحدهـا - هـى التـى تحقق :**

أ. الحسم الذى لابد منه بعد أن وصل التعقد والتفاقم والتشـابك نتيجـة للتخبطات الماضية إلى درجة لا يرجى معها الحل ولكن البتر .

ب. الانطلاق بسرعة وصرامة لا يسمح بها السياق العادى فى حيـن أن هذه السرعة أصبحت ضرورية بعد التخلف الشنيع وإهدار الوقـت الثمين .

ج. إذابة الاختلافات.. وصهرها فى بوتقة الثورة .

ولكن لسلامة هذه الثورة لابد من توفر المقومات الثلاثة للثورة التى أشرنا إليها (النظرية - إرادة التغيير - مشاركة الجماهير) حتى لا تصبـح انقلاباً وبدلاً من أن تقضى على المرض، فإنها تفاقم فيه أمراضاً جديـدة ، كما حدث فى الانقلابات العسكرية فى الـدول العربيـة التـى أريـد بـها الإصلاح فلم تأت إلا بالفساد .

ولا تقتصر ضرورة الثورة على استدراك التخلف. إن مناخ الثورة، وما فيه من حماسة وحرارة. هو وحده الذى يصهر الاختلافات والتناقضات الاجتماعية فى بوتقتها، وما دامت تقوم على نظرية فإن النظرية تجذب هـذه التناقضات بقوة وتتولى صهرها وإعادتها سبيكة جديدة تختلف تمامـاً عـن العناصر التى تكونها قبل صهرها لأن النظرية أضـافت وأخـذت بحيـث هيأتها لتكون خلقاً جديداً فضلاً عن أن الإيمان بالنظريـة سيكون القـوة الدافعة لحركة الثورة من رؤية التنظير إلى واقع التطبيق .

وإذا أردنا أن نطبق المقومات الثلاث التـى وضعناهـا للثـورة ألا وهى النظرية - إرادة التغيير، مشاركة الجماهير. فقد لا نجد فى العصـور

القديمة إلا الأديان.. وقد لا نجد فى العصور الجديدة إلا الثورة الفرنسية والثورة الاشتراكية [١] .

ففى الأديان السماوية الثلاثة - على الأقل - نجد النظرية، وقد وصلت أعلى مستوى لها بحيث أصبحت عقيدة، ونجد التغيير الكامل.. ونجد مشاركة الجماهير المستعبدة.. وهذه المقومات واضحة كل الوضوح فى الإسلام، وفى المسيحية، وفى اليهودية بحيث لا نجد أنفسنا فى حاجة للتدليل عليها .

إن عزوف المجتمع الأوربى عن الأديان، وعداوة الاشتراكية (التى احتكرت فى العصر الحديث دعوة الثورة) أديا لعدم ذكر الأديان كثورات، وهى واقعة لا تسئ للأديان بقدر ما تسئ إلى هذا المجتمع. إن الأديان الثلاثة كانت هى الصورة الوحيدة التى مكنت الجماهير من أن تثور، ومن أن تحقق التغيير، وذلك لأن نظريتها - أو قل عقيدتها - تولد أعظم درجة من الإيمان (وقود الثورة) وتربط هذا الإيمان بالله تعالى رمز القوة المهيمنة

وقد كان مقوم "النظرية" فى الثورة الفرنسية هو أضعف مقوماتها. لأنه كان شعارات المساواة والإخاء والحرية، وهى شعارات فضفاضة ويمكن أن يساء استخدامها فتؤدى عكس المقصود منها بحيث يصدق عليها تماما كلمة مدام رولان الثورية الفرنسية وهى تساق إلى المقصلة "أيتها الحرية، كم من الجرائم ترتكب باسمك" .

وفى الثورة الاشتراكية نجد نظرية محكمة تقوم على حتمية جدلية مادية، تتقمص قميص العلمية فى مواجهة " طوباوية - أو المثالية" ولكن الذى جذب لها الجماهير كان دعوى العدالة و "الطبقة العاملة" ولكن لما كانت نظريتها لا تخلو من النقص والخطأ وكانت فكرة "الطبقة العاملة" مجرد إدعاء فإن النقص فى النظرية جعلها ترتكب من الجرائم ما جعل جنايتها على البشرية والجماهير أسوأ من إحسانها إليها، وقد كانت الصورة السليمة لها هى "الاشتراكية الديمقراطية" التى اعتبرها لينين كفرا وخيانة

---

(١) يمكن أيضا الإشارة إلى الثورة الإيرانية. فقد توفر لها المقومات الثلاثة للثورة .

وهرطقة وشن عليها حرباً شعواء، ولو قامت بـــها روزا لوكسـمبورج أو كاوتسكى أو بليخانوف، وليس لينين وتروتسكى لكـــان مـــن المحتمـــل أن تتجنب الأخطاء الشنيعة التى انزلقت إليها تجربة الاتحاد السوفيتى .

ولم يتنبه الاتحاد السوفيتى إلى هذا الخطأ، أو يتعلم الدرس إلا بعـــد سبعين عاماً بذلت فيها الجهود، وعلقت عليها الآمال وتحقق بـــالفعل مـــن الإنجاز، ما لم تقم به أى ثورة أخرى فى العالم، ولكن على غـــير أســاس إنسانى...، وبدون حرية وهما شرطان رئيسيان فى نجاح النظـــم، ولـــهذا تهاوى الاتحاد السوفيتى دون الدخول فى معركة، وهو الذى أمل أن سيحفر قبر الرأسمالية ..

وفى الإسلام نجد أفضل صورة للثورة، نجد النظرية المثلى، نجـــد القيادة الحكيمة، نجد المشاركة الجماهيرية، ولهذا اتسمت ثورة الإسلام بمـــا لم تتسم به ثورة أخرى من النجاح أو الإنجاز، ولكن هذه الثورة لم تحتفـــظ بمستواها إلا لمدة أربعين عاماً، تطرقت إليها بعدها عوامل أخرى افتـــاتت عليها شيئاً فشيئاً حتى فقدت معظم مضامينها .

وقد يقول البعض ليس لكم إذن أن تعايروا الثـــورة البلشـفية، فقـــد صمدت سبعين عاماً فى حين أن الثورة الإسلامية لم تصمد سوى أربعيـــن عاماً، ولكن هناك فرق من أربعين سنة من الصفاء والنقاء وسبعين سنة من الأخطاء والجرائم والمنكرات .

ولهذا فإن الأربعين سنة ظلت مصدراً للإلهام وللإشعاع وللإيحـــاء بمحاولة العودة إليها فى حين أن سبعين عاماً من البلشفية جعلت الأجيـــال التالية "تتوب" وتتوقف تماماً عن تكرار المحاولة وتدفعها للتبرؤ منها .

* * *

وهذا ما يجعلنا نشير إلى فارق هام مـــا بيـــن الثـــورة الإســـلامية والثورة كما تفهمها أوربا فى ثورتيها الثورة الفرنسية والثـــورة البلشـــفية. فالثورة الإسلامية استهدفت أولاً وقبل كل شئ إيمان الفـــرد، والإيمـــان لا

وإنما يأتى بالاقتناع والقبول، ولهذا كانت معجزة الإسلام قرآنا يحقق هـذا الإيمان، ويحققه بالطريقة الوحيدة أمام أى كتاب أى اقتناع الفرد بما جاء فى القرآن .

وبعد إيمان الأفراد، وتعميق الإيمان فى نفوسهم ينتقل الإسلام إلى القضاء على الأوضاع "الجاهلية" ليغرس أوضاعه الخاصة، ويتم هـذا لا بسلطة الدولة بالدرجة الأولى، ولكن نتيجة لإيمان الأفراد، فلو لم يؤمنوا بتحريم الخمر والزنا والربا لعجزت الدولة عن تحقيق ذلك أو لشاب تحقيقها العيوب التى تصاحب كل إجراء يأتى من قبل الدولة .

**فثورة الإسلام هى ثورة الكلمة، ثورة الإيمان الذى لا يحتاج إلى سلطة أو سلاح إلا للدفاع، وكحل أخير وهى تحقق تغيير الأوضاع نتيجة إيمان الجماهير وليس سلطة الدولة .**

وعلى نقيض ذلك فإن الثورتين الفرنسية والبلشفية استهدفتا من البداية القضاء على الأوضاع، فكان لابد من القضاء على الذين يستفيدون من هذه الأوضاع ويبقون عليها، فكان العنف هو الوسيلة الوحيدة التى لا مناص عنها، وكان لابد لها أن تبرر ذلك فأطلقت عليه "الشرعية الثورية" أى عدم التقيد بالمبادئ التى حمت الأوضاع السابقة .

ولكن التجربة التاريخية تثبت لنا أننا إذا أطلقنا العنف، وتحررنا من الشرعية "الإنسانية" التى تحمى الملكية، والنفس، والعرض بحجة إساءة استخدام بعض الفئات لهذه الحقوق، فإننا سنعجز عن كبح جماحه، وسيؤدى العنف المبرر - إذا جاز - إلى عنف لا يبرر إلا بالعنف نفسه ولا يمكن التمييز بين عدالة عنف ما وعشوائية عنف آخر. إن العنف لأنه ليس له ضوابط - لابد وأن يشمل الجميع - حتى قادة الثورة نفسها فى النهاية .

ولهذا جرت الدماء أنهارا فى الثورة الفرنسية ولما عجزت البنادق اخترعوا "الجيلوتين" المقصلة ولجأوا إلى الإغراق ! كما قتلت ثورة البلاشفة ملايين الفلاحين عمدا عندما انتزعت منهم أقواتهم وماشيتهم بحجة أنهم "كولاك (أى ملاك)" وتركتهم للصقيع والجوع حتى ماتوا ثم أنداروا

على العمال فأعادوا أساليب السخرة القديمة، وحتى فى الحزب فإن محاكم التطهير كانت تبعد سنويا من عضوية الحزب الحاكم مئات الألوف فيفقدون الوظيفة والسكن الخ...

**إن الشرعية الثورية هى أسوأ ميراث خلفته الثورتان الفرنسية والبلشفية فى الحضارة الأوربية والفكر السياسى، وقد انتقل منها إلى أقاصى العالم وقامت الدماء أنهارا فى الصين وكوريا ودول أوربا الشرقية، وكل مكان حكم فيه الشيوعيون، وبعد أن كانت إنقاذا وتحريرا أصبحت عبودية وتقييدا .**

**وهذه الوصمة المقيتة "الشرعية الثورية" هى مما برأت منه ثورة الإسلام، لأنها كما قلنا كانت ثورة الكلمة والإيمان - وليس السيف والسلطان** - وكان أعظم فتوح الإسلام أول عهده هو فتح المدينة وقد "فتحت المدينة بالقرآن" كما قالت عائشة وحتى فتح مكة الذى أراد المشركون أن يجعلوه معركة دامية فإن حكمة الرسول حالت دون ذلك، وبعد أن قتل عدد يقل عن أصابع اليد أعلن الرسول أن مكة إنما "أحلت ساعة من نهار" بعدها أصبحت محرمة ناسها، وشجرها، وطيرها، وعندما علم الرسول ﷺ أن خالد الذى أرسله داعيا لا مقاتلا قتل أثنين أو ثلاثة، أرسل على بن أبى طالب ليصالح أهل المقتولين ويدفع دياتهم، وتعويضا عن أى شئ خسروه حتى "ميلغة الكلب" أى الإناء الذى يشرب منه الكلب .

**وقد عبر الرسول عن إمكانية تحقيق الثورة بطريق سلمى عندما قال "الإسلام يجب ما قبله" أى صرف النظر عن الماضى، والتنازل عن** أسلوب المحاسبة إذا آمن فرد ما لأن هذا الإيمان فصل ما بين ماضيه، ومستقبله، وعن هذا الطريق كسب الإسلام عددا من أكبر أعدائه السابقين مثل خالد بن الوليد، وهو صاحب المناورة التى ألحقت بالمسلمين الهزيمة فى أحد. وعمرو بن العاص، وهو سفير قريش إلى النجاشى لاسترجاع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة. وعكرمة بن أبى جهل ابن أكبر عدو للإسلام وأحد القلة التى حاربت المسلمين عند فتح مكة ثم ولى منهزما. لقد

تقبل الإسلام هؤلاء الأعداء القدامى فكانوا سيوفا له بعد أن كـــانوا ســيوفا عليه، ولم يحاسبهم الإسلام لأن "التوبة" جزء مـــن آليــات الإســلام، ولأن الإسلام يجب ما قبله، وهو تعبير من أقوى التعبيرات الثوريـــة دون دمـــاء ودون حساب .

**فإذا قارنا هذه السياسة بسياسة الجاهليـــة التـــى كانت لا تدع الثأر أبدا وتدخل فى حــــروب لمقتــل أحــد أفرادها أو بسياسة "اغتصاب المغتصبين" التـــى وضعــها لينين "ولا حرية لأعداء الشعب" وغيرها مـــن سفســطات الشيوعية التى أحلت بها الدماء. أتضح الفرق الكبير بيـن ثورية الإسلام وثورية الشيوعية الحديثة ..**

من هذا العرض يتضح أن الثورة تصبح ضرورة لا مناص عنــــها عندما توجد شروطها الموضوعية، وفى هذه الحالة لا يكون التنصل منـــها محمودا فى شئ، ولكن المهم أن تكون النظرية التى هى مـــلاك الأمــر - سليمة، وقد رأينا أنها فى الثورة الفرنسية كانت فضفاضـــة وفـــى الثـــورة البلشفية كانت خانقة، ولهذا فإن التغيير الذى أحدثناه لم يكن محمودا دائمـــا، واصطحب بعنف وقضاء على الشرعية، وهـــى خصـــائص برئـــت منـــها الثورية الإسلامية .

## الفصل الثانى

# ثورية القرآن
# تذهب بوضع الجاهلية وتأتى
# بوضع الإيمان

---

يعود الانتصار الباهر الذى اكتسبه الإسلام أيامه الأولى، والحيوية المتأصلة التى أثبتت وجودها بدرجات متفاوتة حتى فى عهود الانحلال إلى عاملين رئيسين :

الأول : الطبيعة الثورية للقرآن .

الثانى : القيادة الحكيمة للرسول .

وكما سنرى، فإن الطبيعة الثورية للقرآن الكريم هى صاحبة النصيب الأعظم من إنتصار الإسلام .

وتعود هذه الطبيعة إلى الصياغة الإلهية المعجزة التى أثارت درجة عالية من الانبهار والانفعال والإيحاء، كما كشفت عن مفاهيم جديدة وقيما جديدة وعوالم جديدة كانت كلها مجهولة بالمرة لدى العرب .

**وكانت الثورية فى القرآن من القوة بحيث لم تستهدف تغييراً أو إصلاحاً فى واقع المجتمع، ولكنها رفضت هذا المجتمع بالمرة، وقد تضمنت ذلك الكلمة الأولى من شعار الإسلام وهى "لا" فى "لا إله إلا الله".**

إن هذه الكلمة ذات الحرفين كانت حاسمة، قاطعة، باترة كالسيف المرهف ففصلت بين عهدين، واستبعدت الآلهة المتعددة والأوضاع الجاهلية وأقامت الله الواحد الأحد، وما استتبعه من أوضاع إيمانية .

ومن الأيام الأولى لدعوة الإسلام، وقد استبطن الرسول بطريقة ملء هذه الحقيقة، حقيقة أنه رسول ثورة عظمى وتغيير شامل، وهذا الإيمان العميق المتغلغل هو الذى جعله، وليس له حول أو طول أو قوة يستند عليها. يقف كالطود أمام سراة قريش، الذين بدورهم تنسموا المعنى الحقيقى للإسلام، فحاولوا اكتساب الرسول، ولفته عن رسالته وإغرائه بكل المغريات، وسجلت كتب السيرة هذا المشهد التاريخى.

"قال ابن إسحاق. وحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال: حدثت أن عتبة بن ربيعه، وكان سيداً، قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله فقال: يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فأسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال: نعم، قال فاسمع منى قال: ﴿ بسم الله الرحمن

الرحيم. حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبَة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ثم أنتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك" [1] .

وفى رواية حتى قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فقال عتبه.. حسبك حسبك .

فبأى قوة رفض الرسول السلطة، وهى الهدف الذى يعمل له السياسيون والإغراء الذى يُخدع به الدعاة، وتكررت هذه الواقعة مرة أخرى عندما جاء سراة قريش إلى أبى طالب فقالوا له "يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وأنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين أو كما قالوا له. ثم انصرفوا عنه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه .

قال ابن إسحاق: وحدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث. أن قريشاً حين قالوا لأبى طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله فقال له: يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا للذى كانوا قالوا له فأبق علىَّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه. قال فقال رسول الله ﷺ يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته" [2] وكيف استطاع أن يقف أمام إلحاح عمه

---

(١) السيرة النبوية لأبن هشام – مطبعة البابى الحلبى – ج١ ص ٣١٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٤ .

الأثير.. وأن يصمد أمام تهديد قريش وأن يقول تلك الجملة التي ما كان شكسبير ليستطيع أن يقولها..؟

لا حل لهذا اللغز، أى صدود الرسول عن الملك والجاه إلا إيمانه العميق برسالته وهو ما يكشف عنه ما حدث عندما طلبه سراة قريش ليكلمهم، وظن الرسول بهم خيرا فلما قالوا له ما قالوه فى المرة السابقة وعرضوا عليه الملك والمال والجاه قال "ما بى ما تقولون. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا. وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وأن تردوه على أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بينى وبينكم"

فهنا تتبدى ثورية الإسلام فى هدفها وفى وسائلها. فهى لا تطلب سوى الإيمان بالله – لا الجاه ولا السلطة – وهى لا تعتمد فى هذا إلا على إيمان الناس بها وتجاوبهم معها، وإلا "أصبر لأمر ربى حتى يحكم الله بينى وبينكم" .

ورغم هذه المواقف المتميزة من الرسول فى أيام الدعوة الأولى عندما تداعت عليها قوى قريش، وما تتسم به من بعد نظر يعلى الاستراتيجية على التكتيك، والغاية على الوسيلة. **فتظل الأهمية الأولى للقرآن**، ويختلف الإسلام فى هذا عن المذاهب التى يغلب عليها اسم صاحبها، كما هو الحال فى الماركسية واللينينية. **لأن سياسات الرسول الحكيمة إنما كانت تطبيقا لوحى القرآن** .

والمفارقة أن هذه المذاهب تدعى أن البطل ليس هو صاحب الدور الأول فى التاريخ، وأن "العوامل الموضوعية" هى صاحبة الأولوية ومع هذا فإنها تحمل أسماء أصحابها على حين أن الأديان لا تحمل أسم أنبيائها فنقول الموسوية والعيسوية والمحمدية، ولكن اليهودية، والنصرانية والإسلام .

## المجتمع الجاهلى الذى
## ذهبت به ثورية القرآن

لا يمكن أن نقدر الثورية القرآنية إلا عندما نأخذ صورة عن المجتمع الجاهلى والأصول التى كان يقوم عليها وأودى بها الإسلام .

**كانت الجاهلية تقوم على :**

**أ . دين .**
**ب . اقتصاد .**
**ج . تقاليد وأوضاع** فرضها تفاعل الدين بالاقتصاد بعد أن تفاعل هذان مع مناخ الجزيرة وتأثير الصحراء العميق وانفتاحها أو انغلاقها ...

وكانت الوثنية هى الديانة الغالبة، وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة، كان أعظمها هبل (وهو الذى فخر به أبو سفيان يوم أحد) وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى. أدركته قريش وهو كذلك فجعلوا له يدا من ذهب، ومن الكتاب من يظن أن هبل تحريف "لأبولو" الإله اليونانى المعروف .

واتخذ أهل كل دار صنما يعبده وإذا أراد السفر تمسح به حتى يكون ذلك آخر ما يفعله قبيل سفره، وإذا قدم تمسح به قبل أن يدخل على أهله .

وفى بعض الحالات كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا وجعل ثلاثة أثافى لقدره وإذا أرتحل تركه فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك !

وإذا لم يجد حجرا جمع حثيه من التراب وحلب عليها شاته ثم طاف بها !

وكان للأصنام الكبرى مثل هبل والعزى كهنة يتحدثون باسمها، كما كانوا يضعون تقاليد تتعلق بنياقهم أشار إليها القرآن ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر[1] لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون إسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾

﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، وأن يكن ميته فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم أنه حكيم عليم ﴾

وكذلك ما ادعوه من بحيرة وسائبة وحام ..

وواضح تماما أن الدين لم يكن من القوى المؤثرة فى حياة المجتمع الجاهلى. فقد كان استكمالا سقيما وضحلا لجانب من جوانب المشاعر النفسية يتماثل مع الحالة الفكرية لهؤلاء التجار أو الرعاة أو الذين يعيشون على الغارات، ويأخذ شكل بعض الطقوس، وإذا كان للدين من قوة، فإنها تعود إلى العصبية، وأنه إرث الأباء والأجداد، والتمسك بهؤلاء جزء من "مناخ" المجتمع الجاهلى، وكانت جده الإسلام من أكبر ما دفع العرب لرفضه لأنه كان يقضى بأن يخالف دين الأباء والأجداد وهو ما جعل رجلا مثل أبى طالب يقف هذا الموقف .

وكان المجتمع الجاهلى يعتمد فى اقتصاده على الرعى الذى كان يقوم به عادة الأطفال والنساء والعبيد، والتجارة التى كانت صلب عمل قريش وأصل ثروتها بحيث تغلغل الوعى التجارى فى نفسية القرشيين وكان على القرآن، لكى يثير اهتمامهم أن يتحدث عن "تجارة" لا تبور، وتختلف التجارة عن الصناعة التى تقوم على التكييف والإضافة، أو عن الزراعة التى تعتمد على العمل والمتابعة فى أنها لا تتطلب شيئا من هذا، ولا تمثل "قيمة مضافة" وإنما هى عملية نقل المنتجات إلى الأسواق لبيعها هناك. بأثمان تزيد أضعافا عما دفع فيها.وأهتبال الفرص، والتحكم فى الأسواق وما إلى هذا كله من دهاء تجارى يستهدف الربح ..

---

(١) بمعنى حرام .

وكان المصدر الثالث من مصادر الاقتصاد هو الغارات على الجيران فعندما تشح السماء، فلا يسقط المطر، ولا يكون هناك مجال لرعى. أو عندما تتعسر عليهم سبل التجارة.. فليس إلا الغارة على الآخرين والاستحواذ على ثرواتهم قسرا وقد تضطرهم الظروف فلا يدخرون أحدا .

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

باستثناء الرعى الذى كان يتيح لمن يرعى التعامل مع الطبيعة، والسير فى الخلاء، وأن حياة الراعى تقضى ما بين الأرض والسموات فضلا عما تتطلبه حرفته من تعامل مع الحيوان يقوم على الحرص عليه وتمكينه من غذائه والخروج به فى الصباح والعودة عند المساء. نقول باستثناء الرعى، فإن الغارات كمصدر اقتصادي لا تتضمن إلا قيم للسلب والنهب وأما التجارة فإنها تقوم على الذكاء التجارى وتطبيق دستور التجار كافة "أشتر بأرخص الأسعار وبع بأغلاها" ولا جدال فى أنها تتطلب ذكاء ومهارة وخبرة وحسن تقدير ولكنها كلها فى النهاية تصب فى وازع الربح. وتختلف التجارة فى هذا عن الزراعة – أم الحضارة القديمة أو الصناعة أم الحضارة الحديثة فكل واحدة منهما تغرس فى الإنسان مهارات وملكات تمثل إضافة خلاقة وسلوكا سلبيا فى حالة الزراعة وإيجابيا فى حالة الصناعة .

وهنا يتفق الاقتصاد الجاهلى مع الدين الجاهلى فى أنه لا يقوم على قيم أو أسس أو مبادئ موضوعية .

وكان المجتمع الجاهلى الذى تأثر بالدين من ناحية، وبالاقتصاد من ناحية أخرى يصطنع عادات ويضم علاقات تفى بالاحتياجات التى تتطلبها حياة البداوة.. أبرزها الولع بشرب الخمر والاستمتاع الحسى بالنساء وتسوية العلاقات بالحرب، التى كانت – كما أشرنا – موردا من موارد الاقتصاد، ووسيلة لحسم المنازعات بين القبائل المختلفة .

وقد استحوذت الخمر على نفس العربى الجاهلى، لأن مجالسها كانت تملأ فراغ يومه، ولأنها كانت تضرم فى نفسه الحمية، والفخر، والشجاعة، ولهذا قال شاعرهم :

ونشربها فتجعلنا ملوكا

وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

وقالوا فى رثاء ربيعه بن مكدم :

لا تنفرى يا ناق منه فإنه

شريب خمر مسعر لحروب

كما كانت تغذى الشهوات الحسية، وهذه كلها ملاك الفضائل لدى العربى الجاهلى، وتشجع على حسم العلاقات ما بين القبائل بعضها ببعض بالعنف والحرب، وما بين الرجل والأنثى بالاستمتاع الحسى..

وتعد قصائد امرئ القيس ومعلقة طرفة بن العبد تمثيلا دقيقا لما كان يملأ حياة الشاب العربى النابه فى الجاهلية، وهى تضم العناصر الثلاث التى قام عليها المجتمع الجاهلى وأشرنا إليها آنفا وتضمنتها أبيات طرفة المشهورة :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى

وجدك، لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبقى العاذلات بشربة

كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف مجنبا

كسيد الغضاء نبهته المتورد [١]

---

(١) المضاف أى الخائف المذعور – المجنب الفرس الذى فى يده انحناء خفيف والسيد (بكسر السين ) الذئب. الغضا الشجر الملتف الكثيف – نبهته أثرته وأخفته المتورد الذى يرد المياه للشرب .

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

ببهكنة تحت الخباء المعمد [(١)]

وبصفة عامة فإن الشعر الجاهلى عن المرأة يعبر عن عاطفة حسية، واستمتاع جنسى باستثناء الحالات القليلة عن الحب العذرى، وهذا هو ما كان يتفق مع المجتمع الجاهلى - مجتمع الحرب أو الشرب مما لم يكن يسمح بمشاركة المرأة، ومن ثم فقد اقتصرت العلاقة ما بين الرجل والمرأة على الصلة الجنسية ولا ينفى هذا أن جانبا من جوانب الحمية، أرتبط بالعرض وأحاط المرأة بصيانة خاصة، ولكن هذا لم ينشأ من سمو المشاعر، ولا من سمو منزلة المرأة، ولكنه كان من مقتضيات الحمية الجاهلية، وقد يدل على هذا أن ثلاثة أنماط من أنماط الزواج الأربعة التى كانت شائعة فى الجاهلية وتحدثت عنها عائشة كانت أقرب إلى الدعارة كزواج الاستبضاع، وهو أن يعتزل الزوج زوجته عند بدء طهرها ويقول لها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها ولا يمسها حتى يتبين حملها "وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابه الولد !!" بالإضافة إلى نمطين آخرين ينشآن عن العلاقة بالعاهرات، مما ينم على أن حاسة الشرف عند الجاهلى لم تكن بالصورة الشائعة عند الناس .

وكان العامل الذى اكسب القبيلة العربية تماسكها فى الجاهلية هو "العصبية" وهى كلمة تغلغلت عميقا فى جذور المجتمع العربى، وعنى الإسلام أول ما عنى بالقضاء عليها ونجح فى هذا فترة الخلافة الراشدة، ولكنها عادت مع بنى أمية وتمثلت فى موقعة مرج راهط ثم سارت حتى بلغت الأندلس، وكانت سبب تنازع القبائل العدنية واليمنية وأعتبرها ابن خلدون أساس تماسك الملك وكان من العسير اقتلاعها لأن المجتمع الجاهلى بُنِيَ عليها فهى الانتماء وكانوا يقولون إن العرب تنتمى للأباء والأسلاف بينما الأعاجم تنتمى إلى الأماكن والأوطان، وكان عرف القبيلة هو القانون من يحترمه يظفر بحمايتها ومن ينتهكه يحرم من هذه الحماية، ويعد

---

(١) تقصير يوم الدجن أى أن الاستمتاع بامرأة سمينة ناعمة يجعل يومه الذى جلله الغيم - قصيرا شأن السعادة تحت الخباء المعمد أى المرفوع بالعمد .

"مهدور الدم" وعرف القبيلة "ذاتى" لا يعرف الموضوعية وشعاره "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما" وأن يغضب ألف سيف عندما يغضب شيخ القبيلة "لا يسألون لم غضب" وعن هذه الذاتية المفرطة نشأت عادة الثأر واكتسبت قداستها "وذاتيتها" بمعنى أن ثأر المقتول لا يطلب عند قاتله فحسب، وإنما يطلب عند "قبيلة" قاتله، ولا يقتصر على القاتل، وإنما يشمل أسرة القاتل كلها وقد نشأت أقسى وأطول الحروب نتيجة لثارات كان يمكن أن تسوى لو ضبط الثار ولم يترك ليشمل القبيلة كلها، وما يعنيه هذا من الحرب كحرب البسوس – لأن كليب أصاب بسهمه ناقة البسوس وهى ضيفة جساس – أخى زوجة كليب جليلة – الذى رأى فى ذلك خفرا لذمته ولجواره. فذهب إلى كليب وقتله وهكذا اشتعلت الحرب أربعين عاما ما بين قبيلة بكر وتغلب وقضت على زهرة فرسان القبيلتين .

كما اشتعلت الحرب بين عبس وذبيان نتيجة سباق بين داحس، وهو حصان قيس بن زهير العبسى، والغبراء وهى فرس حمل بن بدر الذبيانى، وكاد أن يسبق داحس لولا أن رجالا كمنوا له وردوه عن سيره فسبقت الغبراء ونشبت الحرب بين عبس وذبيان حتى كادت تفنى القبيلتين ..

وكان يمكن لهذه الحرب الضروس أن لا تنشب أصلا، أو كان يمكن أن تحسم بالصلح، لولا غلبة العصبية والغلو فى الثأر ..

وصور جعفر بن أبى طالب مجتمع الجاهلية أمام النجاشى فقال "أيها الملك. كنا قوما أهل جاهلية. نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف .."

* * *

على أن هذا لا يعنى تجرد عرب الجاهلية من الفضائل فقد كان فى سجيتهم الكرم والشجاعة والأنفة، ولم يخضع العرب لحكم الملوك ولا لطاعة السلاطين ولم تكن لهم حضارة تقضى على الفطرة التى كانت غالبة عليهم، وقد برزوا فى أحد الفنون الرفيعة وهو الشعر فكان محل فخرهم وكانت القصائد الممتازة تعلق على الكعبة، ومن ثم حملت أسم "المعلقات" .

كانت الطينة التى جبل منها العربى الجاهلى طينة فطرية صلبة، ولكن غشيتها غشاوات الجهل والعصبية فحجبت قوتها وانحرفت بها إلى المسارات الضالة، وكان لابد أن يتخلص المجتمع الجاهلى منها حتى تظهر طبيعتها الحرة.. القوية، وهذا ما قامت به ثورية القرآن .

## المجتمع الإيمانى الذى جاءت به ثورية القرآن:

جاء القرآن فقضى قضاء مبرما على الأوضاع الجاهلية. لقد عرفهم على "الله" تعالى وكشف لهم عن عوالم قدرته، ورحمته، وخلقه لهذا الكون العجيب من سماوات وأرضين، وتسييرها كلها بنظام دقيق ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾. وأنه تعالى هو مصدر القيم العظمى من رحمة وعدل ومساواة وحب التى تضمنتها الأسماء الحسنى، وأكد لهم تأكيد اليقين إن هناك بعثا بعد الموت ونشرا من القبور وحسابا وثوابا وجنة ونار.. يقوم على العدل بميزان لا يغفل مثقال ذرة ...

فأين هذه الصورة الرائعة والآفاق الجديدة اللانهاية زمانا ومكانا من أوثانهم تلك القبيحة الجامدة ؟ لقد كان لابد لهذه الأوثان أن تزول حتى وإن لم يسقطها الرسول واحدا بعد واحد عندما دخل مكة فسقطت الأوثان وارتفع "لا إله إلا الله" ..

أما الغارات التى كانت مصدر رزق عندما يحل القحط فقد قضى عليها الإسلام بما أوجده من نظم للزكاة وللتكامل الاقتصادى .

وكانت قضية العصبية من أصعب القضايا، وقد قضت عليها أخوة الإسلام وإشاعة قيم المساواة الخ.. وندد بها الرسول بصورة تنفر منها النفوس فشبهها بالخرء يدهده الجعل بأنفه وقال دعوها فإنها منتنة .

ولئن كانت عوامل التحول التى سنشير إليها فـى الفصـل المقبـل سمحت بعودتها بدرجات متفاوتة، فما كان فى العـهد النبـوى والراشـدى لأعز عزيز فى العرب أن يقول ما قاله مهلهل "بؤ بشسع نعـل كليـب"[1]. وعندما وطأ رجل من فزاره إزار جبله بن الأبهم ولطمه هذا لطمه أدمـت أنفه أراد عمر الاقتصاص منه وارتاع جبله وقال "أتقصه منى وأنـا ملـك وهذا سوقه ؟" فقال عمر إن الإسلام سوى بينكما ..

وفض الإسلام مجالس الخمر التى كانت سلوة الجاهليـة وتسـليتها وأحل محلها مجالس للذكر والعلم والعمل الصالح ..

وعمد القرآن إلى الثأر فألزمه جادة العدالة وأن يكون فـى شـكل "قصاص" مع ترغيب فى العفو فإن لم يكن ففى الدية .

أما المرأة، وأما الرقيق فقد كانا همان من هموم الإسلام لم يسـترح إلا بعد أن حل مشكلتهما، فأوجب العتق بنص القرآن "فإما منا بعـد، وإمـا فداء" وحرم الوأد واعترف بشخصية المرأة وحقها فى الإرث الذى حرمتـه الجاهلية عليها، وحقق المساواة بينهما، وحرم تلك الصـور مـن الـزواج القائمة على الدعارة، ووضع نظم الزواج والطلاق بمـا يحقـق فـى أرادة القرآن من محبة وسكينة ..

وعندما نزل القرآن خشع بلغاء العرب وشـعراء القبـائل أمامـه فتصدر، وتأخر الشعر ووضع القرآن أساسا ليظهر النثر البعيد عن سـجع الكهان، ولتتقدم الكتابة وليستلهم العرب من معانى القرآن ما لم يكن يجـدوه فى الشعر الجاهلى الذى كانت مادته الفخر والغـزل والاسـتمتاع الحسـى والتعصب القبلى .

---

(١) عندما احتدمت حرب البسوس رأى الحارث بن عباد سيد بكر أن يطفئها فارسل أبنه الشاب إلى المهلهل ليقتله فداء لكليب وتنتهى الحرب، وقتله المهلهل قائلا "بؤ بشسع نعل كليب" وهذه الإهانة الفظيعة أن لا يقتل فداء وكفأ لكليب ولكن فداء لشسع نعل جعلـت أباه يثور ويقود قومه لكى ينتصر على تغلب انتصارا ساحقاً فى يوم " تحلاق اللمم " ..

أسقطت ثورية القرآن الآلهة المعبودة، وإلهة السلطة، وإلهة المـــال، وإلهة الشهوات التى طالما استبدت بالناس، وأحلت محلها عبادة الله وحـده - الرمز والمثل الأعلى، والخالق الحكيم الرحيم العليم الذى يلهم الخير والعدل والحرية ويوجب المساواة والأخوة بين الناس ويضع أصرهـــم والأغـلال التى كانت عليهم وينقذهم من الظلمات إلى النور .

كانت هذه المعانى هى ثورية القرآن، وعندما تغلغلت فـــى نفـوس المؤمنين الأول فإنهم أقاموا عالماً من الحب والأخوة والمساواة والعمل لمـا يرضى الله .

إن شعب فرنسا عندما تعرف بعد هذا التاريخ بـــألف عـام علـى شعارات الحرية، والمساواة التى نادى بها عدد من المفكرين ثـــار وأسـقط الملكية ودمر الباستيل وأقام الجمهورية .

فكيف عندما تأتى هذه المعانى فى أقوى صـــورة، ويصـدع بـها القرآن ويدعو إليها الرسول الذى جعل القيادة خدمة ورسالة بعد أن كـــانت تعاليا وسيطرة ...

## تلك كانت ثورية القرآن ...

وعندما حج الرسول حجة الوداع، كان الإسلام قد غـــرس بـذور ثورته وأودى بالأوضاع الجاهلية التى أشرنا إليها.. وأوجد أوضاعاً مختلفـة كل الاختلاف تصورها كلماته ..

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلـــى أن تلقـوا ربكـم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عــن أعمالكم، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها، وإن كـل ربـا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنـه لا ربا، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان فـى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبـد

المطلب (وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية). أما بعد أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذا أبدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم أيها الناس: إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله .

أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ المسلم، وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت ..

**كانت خطبة الوداع - من ناحية - وداعا للجاهلية بخمرها، وآلهتها، وعصبيتها، وحميتها، واستقبالا للإسلام بعبادة الله والأخذ بمكارم الأخلاق وإشاعة لقيم المساواة، والخير، والعدل التى جاءت بها ثورة القرآن ..**

# الفصل الثالث

# من الثورية إلى الحفاظ

## تفريغ التوجيهات القرآنية من مضمونها الثورى ليمكن معايشة العصر والنظام

---

## قوى التحول

---

رأينا أن القرآن الكريم والرسول العظيم قاما فى المدينة بتجربة ثورية لم تشهد لها البشرية مثيلا لأنها جمعت ما بين الدين والدنيا - القول والعمل، وحققت "اليوتوبيا" المنشودة، وبرئت من لوثات الثورات .

ولكن عوامل عديدة عصفت بهذه التجربة قبل أن تتغلغل جذورها فى أعماق المجتمع العربى، وكان مقتل عثمان واستشهاد على والألوف المؤلفة للقتلى فى الجمل وصفين، بما فيهم زهرة الصحابة، من العنف والقوة بحيث سمحت بوجود "الملك العضوض" الذى يختلف فى روحه بالدرجة الأولى، وفى مظاهره بالدرجة الثانية عن روح ومظاهر الثورة التى حققها الإسلام فى المدينة ...

ولسنا الآن بصدد تحقيق أسباب هذه النقلة الجسيمة، ولا الحكمة منها، ولماذا لم يسمح الله تعالى لهذه التجربة بالبقاء، ولو لمدة أطول مما سلختها، وما هى الحكمة فى ذلك فهذا ما تعنى به دراسات موسعة توضع لذلك أساسا. ولا جدال فى أن هناك حكمة أرادها الله... فإن الله تعالى لا

يصطنع أقواما إلا على أساس إتباعهم لما أنزله، ولعله تعالى أراد أن يعلمنا أن لا نسرف فى الأمل والتفاؤل أو نستكين إلى مثال سابق .

المهم أن المجتمع الذى جاء مع بنى أمية كان مجتمع الملك العضوض الذى كان كما قلنا - يختلف فى روحه عما أرادته ثورية القرآن حتى وإن احتفظ ببعض الظواهر والشكليات ..

ونشأت عن هذا الوضع مفارقة كبيرة، فالناس بين أيديها قرآن تصدع آياته بالثورية، ولكنهم يعيشون فى مجتمع تتعارض، أو حتى تتناقض، أوضاعه مع هذه الآيات ..

**عوامل عديدة أدت إلى هذه النقلة الجذرية منها :**

**أولا:** أن الانتقال من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض بدأ بالمحنة التى أدت إلى قتل الخليفة الثالث عثمان ثم مرت بمخاض دموى رهيب ومؤلم نزفت فيه دماء المسلمين وقتل قادة الأمة: على، والزبير، وطلحه، وعمار، والألوف من الصحابة، فكان لابد لهذا المخاض أن ينتهى بمولود يحمل سمات مرحلة القلق والاضطراب .

**ثانيا:** إزاء المرارة والحسرة والحيرة والهزة النفسية العميقة التى أوجدها المخاض، وأمام التعقيد الذى انطوت عليه التطورات آثر الحسن بن على أن يسلم الأمر إلى معاوية حتى يتفادى المزيد من سفك الدماء ثم لا تكون النتيجة مضمونة. وكان هذا القرار الذى أتسم بالورع والزهد والتنازل فى حقيقة الحال حنكة سياسية، لأن الأحداث دلت على أن البديل الثانى أى مواصلة الحرب بديل فاشل - كما سيتضح من الفقرة الثالثة، ومعاوية رغم أنه هو الذى غرس بذرة هذا التحول المشئوم كان أفضل من غيره، وكانت فيه أثاره وهنانة من عهد الرسول، وحلم وكرم يلطفان السطوة والسيطرة .

**ثالثا:** أن فئات من المسلمين رفضت الملك العضوض وأرادت العودة إلى عهد الخلافة الراشدة سواء كانوا من الخوارج أو من آل البيت

الذى خرجوا مع زيد بن على (زين العابدين) ومع محمد النفس الزكيـــة. أو من أتباع عبد الله بن الزبير أو من القادة الذين ثاروا على الحجاج مثل عبـد الرحمن بن الأشعث، وهزم هؤلاء جميعا فضلا عن خروج الحســـين بـــن على وكارثة كربلاء التى كادت أن تستأصل أهل البيت

**رابعا:** لما أصبحت الثورة على القهر مستحيلة لم يعد هناك بد مـــن الاستسلام له، حتى مع عدم "التطبيع" معه، يكشف عن ذلك الصراع بيـــن الأئمة الأربعة، وغيرهم أيضا، وبين سلطة الملك العضوض ثـــم أنقـــرض جيل القتال والرفض، وأنقرض جيل الرفض السلبى وعدم التطبيع وظـــهر جيل نشأ فى العهد ورضع لبانه، وتأثر به ولم يره شيئا إدا. فقد حقق القرآن ثورته بالفعل وليس بعد الثورة إلا الحفاظ.. كان المجتمع يريد أن "ينام علـى الجنب الذى يريحه" كما يقولون، وكانت الأجيال التى نشأت فيه تتفهم هـــذا وتتقبله، وما كان يمكن أن تتمرد عليه ومـــن ثـــم فإنـــهم رأوا أن دورهـــم الحقيقى هو الحفاظ وليس الثورة .

**خامسا:** يجب أن لا ننسى أن هذا الملك العضوض تصدى لرســـالة بدت وقتئذ مقدسة، وهى فتح بلاد الفرس والرومان، ومواصلة الخط الـــذى بدأه عمر بن الخطاب فامتدت الفتوحات الإسلامية من الـــهند وأفغانســـتان شرقا حتى الأندلس غربا، ومن المحتمل أن الأجيال التى عاصرت العـــهد الأموى، والعباسى رأت أن ثورة القرآن مستمرة، على أرض جديدة وتحـت سماوات جديدة، وأن هذا يحمد لهذه العهود ويذكر فـــى حســـناتها ويـــبرر مناصرتها، وقد صلى عدد من الصحابة وراء يزيد بن معاوية عندما كـــان يقود الجيش الذى حاصر القسطنطينية .

**سادسا:** كان الإسلام حتى فى عهد الرسول له طابع عـــالمى، فقـــد كان حول الرسول سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشـــى وفـــى بيت الرسول نفسه كانت صفية ذات الأصل اليهودى ومارية القبطيـــة ذات الأصل المصرى، وعندما بدأت الفتوح غطا طرقـــات المدينـــة الأســـرى وأقبلت الشعوب المفتوحة على الإسلام أفواجـــا لمـــا رأت مـــن بســـاطته وسماحته، ولأنه كان طريق الاندماج فى المجتمع والوصـــول إلـــى أعـــلا

مراتبه، وقد استنكر عمر بن الخطاب أن يخلف أحد ولاته مولى له.. فقال الوالى أنه حافظ للقرآن الكريم فتراجع عمر وقبل هذا الوضع لأن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً، ولم يلبث الموالى أن تصدروا كل المعارف الإسلامية: الحديث، والتفسير والفقه. بل حتى اللغة العربية التى كانت بطبيعتها بعيدة عنهم، وأى شئ أكثر دلالة أن يكون إسم إمام العربية "سيبويه" .

ولا جدال فى إخلاص الموالى لقضية الفكر الإسلامى وخدمتهم له، ولكن هذا لا يمنع من أنهم حملوا عن آبائهم وأجدادهم تراث حضارات فارسية أو رومية أو هندية غريبة عن الإسلام، وكان هذا التراث يسرى فى الدم لأن الوراثة تنسحب على الحركات والسكنات كما تنسحب على الأجسام والألوان وتؤثر فى طريقة فهم الأشياء وتكييفها، وما كان الموالى يستطيعون - لو أرادوا - التحرر منها خاصة وأن الأجيال الأولى لم تقطع علاقتها بجذورها فاحتفظت بلغاتها الأصلية، ولعلها أورثتها أبناءها، وهؤلاء إلى أبنائهم قبل أن تنقطع العلاقة بينهم وبينها، واللغة قناة تنقل الفكر فى النفس، ولابد أن هذه اللغات نقلت إلى عالم الفكر الإسلامى مضامين عديدة جديدة عليه وبالنسبة للموضوع الذى نحن بصدده فيكاد يكون أثرها الأعظم هو فى صف الحفاظ وليس فى صف "الثورة" فلم يحضروا عهد ثورة الإسلام، أو يشتركوا فيها. وقد جاءوا مع الفتوح، التى بلغت أوجها فى العهد الأموى ثم العباسى، وكانت طريقتهم للظهور فى العهد والنظام القائم الاندماج فيه وليس الثورة عليه ..

لهذا كان من الطبيعى أن تُستبعد المضامين الثورية القرآنية ويحل محلها مضامين من آثار الحضارات السابقة التى تقوم على الحفاظ ومقتضيات الملك، ولم يعدم الذين ذهبوا هذا المذهب آيات من القرآن يمكن أن يحملوها بما ذهبوا إليه .

**سابعاً:** أن الامتداد السريع للدولة الإسلامية وما حازته من فتوح على الدولة البيزنطية والفارسية، وما استوعبته الدولة العباسية من مؤثرات فارسية وتركية.. وحركة الترجمة التى بلغت أوجها فى عهد المأمون كل هذا أفسح المجال لظهور طرائق فى التفكير لم تكن معهودة لدى العرب. كما سمحت بظهور حركة " الوضع الوبائى فى الأحاديث " ليس فحسب

انسياقا مع الأوضاع أو الضرورات السياسية. بل وكنوع من الدفاع عن الإسلام فى مواجهة المذهبيات كما فعل "الوضاع الصالحون" فى وضع أحاديث عن فضائل السور القرآنية والأدعية وغيرها ..

**ثامنا:** أن عملية وضع الأحاديث ليست إلا جزءً من عملية أكبر وأقدم منها بكثير هى الكيد للإسلام بالدس وإفساد العقيدة بعد أن عجز أعداؤه عن هزيمته، **وقد بدأت هذه العملية بمجرد قيام الإسلام، وفى عهد الرسول، وقام بها فريق من المنافقين ومجموعة من اليهود، وكان من وسائلهم نشر الشائعات، وتوجيه أسئلة معجزة للرسول، والإيمان بالإسلام نهاراً والكفر به ليلاً وأخيراً دس أحاديث وروايات لا أصل لها ونسبتها إلى بعض الصحابة واللغو فى القرآن ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ {٢٦ فصلت}.**

وقد يجوز لنا أن نتساءل كم طفل من أطفال بنى قريظة لم يكن قد بلغ الحلم، وعاش بين المسلمين وكم امرأة منهم سبيت ودخلت البيت المسلم، ولعلها قد ولدت وربت وليدها على بغض الإسلام، وليس هذا إلا حالة واحدة من حالات الكيد للإسلام بمجرد ظهوره .

**وعندما نعلم أن اليهود، وبالذات يهود بنى قريظة حاولوا التأثير على عمر بن الخطاب فستكون لدينا فكرة عن مدى ما حاولوه. إذ دفع أحدهم إليه بصحيفة من أخبارهم يقرأها، وقبل ذلك عمر بن الخطاب بدافع الفضول والتعرف على فكرهم وعندما ذكر ذلك للرسول غضب غضباً شديداً ونهى عمر عن ذلك .**

ولدينا روايتان عن هذه الواقعة تضمنهما مسند الإمام أحمد بن حنبل :

**الأولى** عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبى **فغضب فقال أمتهوكون فيها يا بن الخطاب ؟** والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء

نقية، لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا بـه، والذى نفسى بيده لو أن موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى .

والثانية عن عبد الله بن ثابت قال جاء عمر بن الخطاب رضـى الله عنه إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله إنى مررت بأخ لى من قريظة فكتـب لى جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال فتغير وجه رسول الله. قـال عبد الله فقلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ فقال عمر رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا، قال فسرى عن النبى ﷺ ثم قال والـذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم إنكم حظـى من الأمم وأنا حظكم من النبيين [١] .

وفى موقعة اليرموك ضم المحدث الدقيق والذى يعـد مـن أوثـق الرواة فى الحديث عبد الله بن عمرو بن العاص حمل زاملتين (ناقتين) مـن أحاديث أهل الكتاب، ولسنا نعلم على وجه التحقيـق هـل اختلطـت هـذه الأحاديث بأحاديث صحيفته القديمة التى كان يسميها الصادقة أم لا.. ولكـن السيدة عائشة عندما علمت بذلك تطرق إليها الشك، ولم تعد تـأخذ حديثـه مأخذ التسليم .

فإذا كان أمثال عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بـن العـاص وكل واحد منهما إمام فى بابه كان هدفا عمل بعض اليهود للتأثير عليه، فما بالنا بالباقى ..

نحن لا يخالجنا شك فى أن كل ما روى من أحاديث عـن نسـخ، وإضافة، وزيادة، فى القرآن، وسنعرض لأمثلة له فيما سيلى ، إنمـا هـو جزء مما أشار إليه القرآن الكريم عندما قال ﴿.. والغوا فيه..﴾ وقد ركبـت لها أسانيد ثقات حتى لا يشك فيها، وجازت الحيلة على المحدثيـن لأنـهم أسرى الإسناد ...

* * *

---

(١) الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام احمد بن حنبل الشيبانى للشيخ البنـا ص ١٧٥ ج١ .

تفاعلت هذه العوامل كلها ما ائتلف منها أو ما اختلف وسارت قدماً خلال قرنين أو ثلاثة وضعت فيها أسس المعارف الإسلامية، وقدمت للدولة الإسلامية المتشحة بعباءة الخلافة، والمجتمع بعلاقاته الاقتصادية والاجتماعية الأطر، والأسس التى تقوم عليها، ويجد فيها سنده التشريعى ..

وظهر هذا كله كتطور طبيعى، بل بدا أمراً رائعاً فقد وضعت قواعد وأسس كل المعارف الإسلامية من حديث، أو تفسير، أو فقه، أو عقيدة، ولم يخطر ببال أحد من الذين اشتركوا فى هذه العملية أنهم ابتعدوا عن قيم قرآنية وسوابق نبوية، لأن عملية التحول تأثرت تأثراً تدريجياً، ثابتاً بالعوامل التى كانت تفقد النصوص القرآنية مضمونها الثورى خاصة وأن المعالجة كانت أشبه بتقطيع أوصال الإسلام ومعالجة كل جزء على حده، وفرض التخصص ضروراته وأولها العناية بالجزء على حساب الكل.. ففى علوم القرآن كان هناك الذين يفسرونه تفسيراً لغوياً، أو مذهبياً، أو بالآثار كما كان هناك مجموعة أخرى عنيت بقضايا مثل النسخ أو أسباب النزول أو استخلاص الأحكام، وفى الحديث كان هناك علم الرواية وعلم الدراية.. وفى الفقه كان الفقه ينعزل شيئاً فشيئاً عن أصول الفقه، ووراء الجميع، وفى أصل اتجاهاتهم كانت روح العصر تسيرهم دون أن يعلموا فما كان يمكن لثورية القرآن التى قامت فى المدينة، وعلى يدى الرسول نفسه أن تستمر، لقد قبض الرسول، وتوارى الصحابة واحداً بعد آخر فلم تأت المائة حتى كان أخرهم يلفظ أنفاسه، واتسعت الرقعة من " أم القرى وما حولها " إلى إمبراطورية شاسعة لها مقتضيات واحتياجات وتربطها روابط وعلاقات وتواجه قضايا ومشكلات تختلف تماماً عما كان عليه الأمر فى المدينة .

ولو قدر لأحد الصحابة أن يبعث فى عهد المتوكل ببغداد أو الفاطميين فى مصر أو عبد الرحمن الناصر فى الأندلس لصعق لما يرى من افتراق بعيد بين ما كان يألفه ويفهمه أيام الرسول [1] وما يلمسه فى هذه

---

(١) بل لقد لوحظ التغيير من أيام أنس بن مالك الذى دخل عليه الزهرى فوجده يبكى فقال ما يبكيك قال لا أعرف شيئاً كنت اعهده على عهد رسول الله إلا قولكم لا إله إلا

المناطق وما يتحدث به هؤلاء الأئمة الأعلام.. ولم يستشعر أحد من هـؤلاء الأئمة هذا الافتراق لأنه حدث تدريجيا وعبر مراحل تسلم كل واحدة إلـى الأخرى فلم يلحظ أحدهم الاختلاف لأنه كان كمن يشاهد نفسه فـى المـرآة يوما بعد يوم وشهراً بعد شهر فلم تروعه آثار السن، ولو أنه لم ينظر فـى المرآة منذ أن كان فى العشرين مثلا حتى أصبح فى الخمسين لراعه الفـرق الكبير ..

ونحن بالطبع أبعد ما نكون عن أن ننتقد الأئمة الذين وضعوا أسـس هذه النقلة، لأن هذا كان أمراً طبيعياً بعد أن ُصفيت الثورة مع مقدم الملـك العضوض، ثم ما تلا ذلك خلال قرنيين حافلين بالأحداث والعوامـل التـى كانت تطور، وتكيف وتغير النظر فى النصوص القرآنية والأحاديث النبويـة وكان بعضها بعيداً كل البعد عن أصول الإسلام، كتلك النقول المسهبة عـن التوراة فى كتب التفسير، أو الأحـاديث الموضوعـة أو طريقـة معالجـة المنطق الأرسطى، ولكنها تزيت بزى الإسلام وأقحمت فيـه عـن طريـق روايات جازت عليهم لأنها استمدت الشرط الشكلى (كالسند مثـلا) ومـن المؤكد أنه لم يخطر ببال أحد من الأئمة الأعلام أن مـا يقـوم بـه يفـرغ نصوصاً قرآنية من مضمونها الثورى، أو يجافى السنة الفعليـة للرسـول، فلعله لو تنبه لتردد، ولكن مثل هذا التنبه ما كان يمكن أن يحدث لأن الغمار والتيار والسياق وتدافع الأحداث وتوالى عوامل التحول التى أشـرنا إليـها كلها حالت دون ذلك، وأنظر مثلاً إلى ثورة المفسرين علـى أبـى مسـلم الأصفهانى وهو المفسر الوحيد الذى أنكر النسخ فقالوا أنـه "جـاهل بـهذه الشريعة المحمدية جهلاً فظيعاً وأنه "من شـياطين المعتزلـة" وأن إنكـاره للنسخ "لا يصح من مسلم ممن يدعى إسلامه إلا بتـأويل" وأنظـر كذلـك الاستقبال العدائى للطوفى الذى أعلن فكرته عـن أن المصلحـة هـى أول مقاصد الشريعة، وتأمل المعارك التى شغلت معظم حياة ابن تيمية مع فقهاء المذاهب، والتى لم يخلص منها إلا بفضل طلاقة لسانه وثبات جنانه، ومـع

---

الله فلما قيل له والصلاة أشار إلى أنهم أخروها عن وقتها "أنظر الفتـح الربـانى فـى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ص ١٩٩ ج١" وللبخارى رواية مماثلة ..

هذا سجن مرارا، وقل مثل هذا على ابن حزم وابن رشد وكانا من خيار الفقهاء ..

**ما نريد أن ننتهى إليه هو أنه بتأثير قوى عديدة حدثت عملية تحول تدريجية انتهت بنقلة - تكاد تكون نوعية - جردت القرآن الكريم من مضامينه الثورية - ومع أن هذا لم يكن مقصودا على وجه التعيين - من المفسرين والفقهاء والمحدثين الذين مارسوا هذه العملية وأحلوا محلها مضامين تدعم الحفاظ ، لا أنها انتهت إلى هذه النهاية لأنها كانت حكم العصر ومقتضى التطور ..**

**وأخذت هذه العملية التدريجية الطويلة شكل :**

١. تفسير القرآن الكريم تفسيرا يجعله كتاب قصص وحكايات، ومعلومات وليس رسالة هداية وثورة .

٢. إيثار المنهج التقليدى النقلى على المنهج التحررى القرآنى وتسخير السنة لتبرير ذلك مما شل ملكة التفكير، خاصة بعد إغلاق باب الاجتهاد .

٣. إقحام مضامين لاهوتية أفسدت عقيدة الله وشقت وحدة الأمة وأدت - فيما أدت إليه - إلى ظهور التصوف، وغيره من الاتجاهات .

وسنشير إلى كل صورة من هذه الصور فى فصل خاص فيما سيلى ..

* * *

-١-

# تفسير القرآن

كان الصحابة الذين عاصروا نزول القرآن يجدون فيه ريا لنفوسهم، وشفاء لصدورهم ونهجا لما تكون عليه حياتهم وسلوكهم. ولم يطمحوا - باستثناء قلة - أن يحملوا القرآن كله، وكان حسبهم عدد من السور يتدبرها الواحد منهم فتغنيه، لأنها قد تكون ذات معان واضحة فيفهمها، أو تكون ذات إعجاز لغوى فتخشع لها نفسه، ويمكن أن يكون هذا وذاك معا، وفى هذا أو ذاك رضا ومقنع. وكانوا على ما روى إذا تعلموا عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، وقد إستغرق عمر بن الخطاب ثمان سنوات فى حفظ البقرة، ولما أتمها نحر جزورا، ووقف عند كلمة "أبا" فى سورة عبس {الآية ٣١} ورأى أن جهله بها لا يضيره، بل إن تقصيها هو التكلف بعينه .

ومما يزيد فى دلالة هذا المسلك ومغزاه أن النبى ﷺ كان بين ظهرانيهم، وكان يمكنهم أن يسألوه، خاصة وقد كان كل ما جاء فى القرآن جديدا عليهم، ولكنهم أثروا أن لا يفعلوا ورأوا فى ذلك نوعا من الفضول يثقل عليهم لارتباط العلم بالعمل عندهم. فالقليل الذى يطيقونه خير من الكثير الذى لا يقومون به أولا يؤدون شكره، ويتنافى مع ما ينبغى للمؤمن من سمت وخلق. ولعلهم تذكروا ضيق النبى ﷺ بمن يسأل تزيدا وتعنتا أو

تفصيلا أو دون حاجة ملحة لذلك، ﴿ ذرونى ما تركتكم ﴾ وما جاء فى القرآن من تحريم السؤال عن أشياء ﴿ إن تبد لكم تسؤكم ﴾ .

بل أعجب من ذلك فى الدلالة أن النبى ﷺ وقد تنزل عليه القرآن لم يخبرهم بتفاصيل عن تفسير أو تأويل ما جاء به، إذ لو فعل ذلك لوصل إلينا قطعا ليس فحسب من باب الرواية كعشرات الألوف من الأحاديث الأخرى ولكن من باب الأحكام لأن ما سيقوله سيعد الحكم الفصل فى الأمر وكل ما وصل إلينا من التفسير المرفوع إلى النبى لا يتعدى ثلاثة عشر صفحة على ما ذكره السيوطى فى كتابه "الإتقان فى علوم القرآن أجمل فيها التفاسير المصرح برفعها "صحيحها وحسنها وضعيفها ومرسلها ومعضلها وإن لم يعول على "الموضوعات والأباطيل" كما استبعد ثلاثة أحاديث طويلة مرفوعة لم يثبت له صحتها أحدها حديث موسى مع الخضر.. والثانى حديث الفتون والثالث حديث الصور "الذى يتناول يوم القيامة" فسكوت النبى ﷺ عن تفسير القرآن أو معظمه له دلالته التى لا يمكن إهمالها لما فيها من حكمة ..

ولخص أحد الشيوخ المعاصرين الموقف فقال " إن القرآن الكريم لم يحظ بتفسير مروى عن الرسول ولا عن صحابته إلا فى آيات قليلة جدا ومتناثرة فلا يمكن أن تكون تفسيرا كاملا بالرواية يعتمد عليه" (١) .

وعلى كل حال فقد اختلفت الصورة بعد أن قبض النبى وانقضى جيل الصحابة وجاءت الفتوح بالألوف المؤلفة من الذين أسلموا مع انتصار الإسلام من يهود أو نصارى أو صابئة.. وحملوا معهم بقايا معتقداتهم القديمة التى لم يكن من السهل عليهم التخلص منها ولم تسعفهم معرفتهم المحدودة بالعربية فى تفهم القرآن أو إدراك إيجازه ومجازه، استعارته واشارته، ولم يكن فيهم ذلك الحرص على الجمع بين العلم والعمل وإنما كان فى معظمهم فضول للتعرف على ما جاء فى القرآن ومدى اتفاق أو

---

(١) التفسير والمفسرون بقلم الشيخ عبد المنعم النمر – مجلة العربى العدد ١٢٥ محرم ١٣٨٩ – أبريل ١٩٦٩ ص ٢٥ .

افتراق ذلك عما كانوا يعتقدونه وعزز هذا كله أن توسع المجتمع وتشعبت قضاياه وتعددت مسائله ولم يكن الذين ولوا الأمر بمنزلة النبى المشرع الذى يفصل فى الأمور بما لا يرد فانفتح الباب أمام ما أطلق عليه "علوم القرآن" وعكفت مجموعات من الناس على تأويل وتحليل وتفسير آيات القرآن كل من زاويتها الخاصة مستعينة فى ذلك بما كان فى الكتب القديمة وبوجه خاص التوراة وما كان بين يدى أهل الكتاب من أقاصيص وروايات طافحة بالتفاصيل ولم يجدوا حرجا من ذلك لما رووه من أحاديث لا تحرم ذلك بل لقد رووا "حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج" فنقلوا عن "علماء اليهود أو من ظنوهم علماء بالتوراة وربما لم يكونوا من العلماء بل من النقلة المحرفين الذين يحرفون ويزيدون أو من عوامهم الذين يسمعون وينقلون ويزيدون، ويستمع منهم المسلمون حتى لتجد كتب التفسير محشوة بتفاصيل لهذه القصص لم يذكرها القرآن ولكنها مأخوذة عن هؤلاء مما اشتهرت تسميته "بالإسرائيليات" وبعض هذه الإسرائيليات تجدها معزوة إلى ابن عباس أو غيره من الصحابة والتابعين مما يوهم روايتها عن الرسول ﷺ وما هى كذلك وإنما هذا مصدرها الذى أتت منه، اليهود الذين أسلموا ونصبوا من أنفسهم أو نصب منهم المسلمون معلمين مخبرين، مما لم يذكره القرآن من تفاصيل القصص" [1] وامتلأت كتب التفاسير بهذه الأقاصيص وغيرها كأن ذكر ذلك هو القصد وليس تفسير القرآن بعينه حتى صح على بعضها ما قيل على تفسير الرازى "فيه كل شئ إلا التفسير"

ودخلت ثلاث مجموعات على الأقل مجال التفسير **فاللغويون** أرادوا أن يصلوا إلى أسرار الإعجاز اللغوى فى القرآن، وما جاء به من نظم بديع ونسق فريد، وتطويع فى بنية الكلمات ليحقق وحدة الإيقاع وتنغيم الألفاظ، وليصل بالجملة القرآنية إلى أقصى درجة من إحداث الأثر وأداء المعنى، **والمذهبيون** حاولوا إثبات مذاهبهم فى جوانب من العقيدة بمختلف الآيات مستغلين مرونة التعبيرات وما يمكن أن يحمله تركيب الجملة القرآنية من معانى، وبوجه خاص الآيات المتشابهات، **والإخباريون** تتبعوا

(١) المرجع السابق ص ٢٣

الوقائع التى ذكرت فى القرآن من خلق آدم حتى قيام الساعة وما بين ذلك من أحداث، وقصص الأمم التى تحدث عنها القرآن، وفى مقدمتها بنى إسرائيل ..

والمأخذ الذى يؤخذ على هؤلاء جميعا أنهم فى غمرة اهتماماتهم بتخصصاتهم وعملهم لإثبات وجهات نظرهم أهملوا الإشارة إلى روح القرآن نفسه تلك الروح التى تنتظم آياته جميعا ككتاب إحياء ونهضة وهداية يستهدف إخراج الناس من الظلمات إلى النور .

وكانت النتيجة أن المفسرين - كما لاحظ ذلك أحد أعضاء مجمع البحوث الإسلامية " قد تصوروا مهمتهم على نحو خاص كان له أثر بين فى توجيه التفاسير التى وضعوها فقد واجهوا القرآن فى البداية كنص يراد شرحه وإيضاح معانيه فشرحوا غامضه وحرروا معانيه وأشاروا إلى ما يتضمنه من مبادئ وأصول، ولكن الأمر لم يلبث أن تطور إلى صورة لم تكن تخطر لأحد على بال ولن نستطيع أن ندرك هذا التطور الجديد حق إدراكه إلا إذا تذكرنا أن العلوم العربية كانت فى هذه الحقبة تنمو وتزدهر فى دراستها فأوغل فريق فى دراسة البلاغة وتوسع آخرون فى دراسة النحو والصرف أو اللغة وجمع غيرهم فى دائرة تخصصهم بين كل هذه العلوم أو عدد كبير معها .

والأمر الخطير هنا أن التخصص العميق يصبغ صاحبه بصبغته الخاصة بصورة قوية فعالة لا يستطيع أحيانا أن يتحرر منها حتى إنه لينظر إلى الأشياء من وجهة نظر تخصصه شاء أم أبى. وقد اتجه كثير من هؤلاء اللغويين إلى تفسير القرآن فماذا كانت النتيجة ؟ بحسبك أن تنظر فى تفسير الزمخشرى مثلا وأن تتذكر حين النظر فيه أن الرجل من كبار علماء النحو والصرف واللغة والبلاغة فستجد فى تفسيره مصداق ما أشرنا إليه آنفا من تأثر الرجل تأثرا عميقا بالعلوم التى تخصص فيها، فأول ما يأخذه نظره من القرآن فيحاول بحثه ودرسه هو الاستعارات والمجازات وغريب القرآن ثم نحو القرآن وصرفه حتى إذا وصلت إلى حاشية الجمل

على الجلالين خيل إليك أن الرجل إنما كان يعنيه أن يتخذ من القرآن الكريم مجالا لتطبيق علوم اللغة وبخاصة النحو والصرف أما معانى الآيات وموضوع القرآن فقد أصبح بمعزل عن مجال الشرح والعرض وخلاصة الأمر أن القرآن تنقلت به الحال من كتاب لتربية المسلمين وتعليمهم الدين والشريعة إلى نص لمجرد الفهم إلى ميدان فسيح لتطبيق علوم اللغة على اختلاف أنواعها وبهذا تم عزل القرآن كعامل يعمل لتربية المسلمين وتكوين عقائدهم وأخلاقهم وشريعتهم وتوجيه سلوكهم" (١) .

وعثرة اللغويين من المفسرين نشأت من أنهم ركزوا العناية على الصناعة اللغوية والنحوية بصورة تفرغ الأسلوب من المضمون فقالوا أن فى آية: ﴿وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر ﴾ عشرين ضربا من البديع وأن قوله تعالى ﴿ إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ قد جمع الخبر والطلب والإثبات والنفى والتوكيد والحذف والوعد والوعيد.. وفضلوا الآية ﴿ إن لكم فى القصاص حياة ﴾ على التعبير العربى القديم " القتل أنفى القتل" وتقصوا ما فى القرآن من تشبيه واستعارة وكناية وتعريض وإيجاز وإطناب وخبر وإنشاء الخ... وألفت كتب كاملة عديدة فى أنواع ذلك .

وأسوأ من عثرة التركيز على الصناعة بصورة تنسى المضمون القرآنى أنهم فى بعض الحالات إفتاتوا على أسلوب القرآن وحاولوا أن يخضعوه لقواعدهم. فإذا نزلوا عن ذلك قالوا - كما روى السيوطى - "هذا تفسير معنى وهذا تفسير إعراب.. والفرق بينهما أن تفسير الإعراب لابد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية وتفسير المعنى لا تضره مخالفة ذلك" (٢)

وأشار كاتب محقق هو الأستاذ: أحمد عبد الستار الجوارى فى كتابه "نحو القرآن" إلى المأزق الذى وقع فيه النحاة واللغويون عندما

---

(١) الأستاذ إبراهيم اللبان فى بحثه عن "القرآن وتجديد المجتمع" نشر فى "التوجيه الاجتماعى فى الإسلام"من بحوث ومؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١ - ١٩٧٢ ج٢ ص ١٦١ .

(٢) الإتقان للسيوطى ص ١٨٢ ج٢ الطبعة الثانية مكتبة محمود توفيق بالأزهر .

أرادوا الجمع بين مذاهبهم المقررة وما تشمل عليه الصياغة القرآنية من بلاغة، بدلا من أن يجعلوا أساليب القرآن المثال الذى يقتدى به وتقتبس منه قواعد اللغة فقال: "ولكن الذى كان ممن وضعوا النحو فى أول الأمر غير ذلك بل عكس ذلك من بعض الوجوه فقد اشتطت بهم السبل وعميت عليهم المسالك فتنكبوا سبل القصد واعتمدوا فى وضع قواعد النحو على ما بلغهم من كلام العرب شعره ورجزه ومثله. أو آثروا جانب المنطق فتصوروا القاعدة قبل استقراء المادة اللغوية وركبوا مركب الشطط فحاولوا أن يجعلوا للقواعد المجردة سلطانا على المروى المأثور يحكمونها فيه ويحسبون أن ذلك هو الصواب وما هو إلا مجانبة الصواب ولقد بلغ بعضهم فى هذا المجال مبلغ الإيغال والغلو فحكموا على مواضيع من أى القرآن بخروجها على نحو العربية.. وركنوا إلى التأويل والتخريج، حتى تنسجم تلك المواضع بأساليبها الرائعة وتراكيبها الدقيقة مع ما افترضوا من قواعد وما رسموا للنحو من حدود .

وأدى تمسكهم بقواعدهم بالزمخشرى لأن ينزلق دون أن يشعر فيقول فى تفسير ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ﴾ "والأصل ويبغون لها عوجا فحذف الجار وأوصل الفعل" ولم يستشعر الزمخشرى حساسية أو أنه أساء التعبير عندما قال "والأصل.." الأمر الذى استشعره مؤلف "نحو القرآن" فوضع لفظة (والأصل) بين قوسين واتبعها بعلامة تعجب واستفهام لأن الزمخشرى دخل الحلبة كنحوى ولغوى يرى الأصل فيما يراه النحاة واللغويون.. بينما رأى الأستاذ الجوارى الأصل فيما يضعه القرآن" [1] .

وعندما لم يفهموا ضرورة النغم فى التعبير والإيقاع فى السياق وما يؤدى هذه المهمة من حروف أو كلمات، زعموا أن كل شئ يوجد لتحقيق ذلك، ولا يدخل فى استخداماتهم النحوية، يكون – بتعبيرهم "لغوا"

---

(١) " نحو القرآن " للأستاذ عبد الستار الجوارى ص ٥٣ .

ولم يجدوا حرجا من قول ذلك بالنسبة لنصوص قرآنية.. فنقرأ في استخدامات "ما " .

"والثانى أن يكون لغوا وذلك نحو قوله تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أى فبرحمة.. ومثل ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ أى بنقضهم .

وأما قوله تعالى ﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة ﴾ ففيه قولان: أحدهما أن ما لغو، والتقدير أن الله لا يستحى أن يضرب مثلا بعوضة والثانى أن ما نكرة وبعوضة بدلا منها يسد مسد الوصف ويجوز الدفع فى بعوضه من وجهين أحدهما أن تكون خبر مبتدأ محذوف على طريق الجواب كأن قائلا قال ما هذا المثل فقيل بعوضة، أى هى بعوضة .

والثانى أن تكون ما بمعنى الذى وبعوضة خبر مبتدأ محذوف والجملة من صلة ما والتقدير أن الله لا يستحى أن يضرب مثلا الذى هو بعوضة [١] .

فأنظر إلى هذه الإفتياتات والتعسفات والتعبيرات الركيكة والتفسيرات السقيمة على حين يمر التعبير القرآنى بالنفس مرور النسيم العليل ويدخل الآذان دخول النغم الجميل .

وقد يتلطفون فلا يقولون "لغوا" ولكن زائدة كما قالوا فى "من" فى قوله تعالى ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ "كأنه قيل ما لكم إله غيره" فى حين أن تركيز الجملة القرآنية يكاد يتأتى من حرف "من" الذى اعتبروه زائدا .

وقد لفت إطلاق تعبير "زائدة" على حروف أو كلمات أوردها القرآن، ومدى لياقة ذلك الإمام السيوطى. فأورد فيما يجب على المفسر.. ".. أن يجتنب إطلاق لفظ الزائدة فى كتاب الله، فإن الزائدة قد يفهم منه أنه لا معنى له، وكتاب الله منزه عن ذلك " ..

---

(١) معانى الحروف تأليف أبى الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى – تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى – دار نهضة مصر ص ٩٠ .

وأعياهم جميعا أن يفهموا حكمة كلمة "ليلا" فى الآية الأولى لسورة الإسراء ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الخ.. ﴾ لأن السرى لا يكون إلا ليلا، ومن ثم فإن تكرارها من الناحية اللغوية فحسب يكون لا معنى له، والحق أن القرآن أثبت ليلا لأن لها ضرورة فى نغم الآية لا يتأتى إلا بها، والقرآن إيقاع وموسيقى كما هو نحو ولغة، ومقتضيات الإيقاع والموسيقى أكثر ضرورة من مقتضيات اللغة، لأنها هى التى توجد التأثير الذى يريده القرآن .

على أن مواقفهم تلك تهون أمام موقفهم تجاه "لحن القرآن" كما زعموا أى التعبيرات من نوع ﴿ إن هذان لساحران ﴾ ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ﴾ ﴿ أن الذين هادوا والصابئون ﴾ فهنا حطم القرآن أقدس المقدسات النحوية من رفع أو نصب وكان أهون عليهم أن يمسوا قداسة القرآن من أن يمسوا أوثانهم التى ظلوا لها عابدين فأوردوا أحاديث مؤتفكات فرووا عن عروة أنه سأل عائشة عن ذلك فقالت: "يا ابن أختى هذا عمل الكتاب أخطئوا فى الكتاب" ورووا عن عكرمة قال "لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفا من اللحن فقال لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف والمملى من هذيل لم توجد هذه الحروف" كما رووا عن أبان بن عثمان يرويه الزبير يقول قلت لأبان بن عثمان كيف صارت ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ﴾ ما بين يديها وما خلفها رفع وهى نصب ؟ قال من قبل الكتاب كتب ما قبلها ثم قال ما أكتب ؟ قال أكتب "المقيمين الصلاة" فكتب ما قيل له ونسبوا إلى سعيد بن جبير أنه قال فى القرآن أربعة أحرف لحن "والصابئون" "والمقيمين" ﴿ فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ ﴿ إن هذان لساحران ﴾ ..

ومن هذا ما أخرجه بن جرير وسعيد بن منصور فى سننه عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله ﴿ حتى تستأنسوا وتسلموا ﴾ قال إنما هى خطأ من الكاتب حتى تستأذنوا وتسلموا أخرجه ابن أبى حاتم

بلفظه هو فيما أحسبه مما أخطأت به الكتاب وما أخرجه ابن الأنبارى عن طريق عكرمة عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء لهدى الناس جميعا ﴾ فقيل له أنها فى المصحف أفلم ييايئس فقال أظن الكاتب كتبها وهو ناعس! وما أخرجه سعيد بن منصور عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يقول "وقضى ربك" إنما هى ووصى ربك التزقت الواو بالصاد وأخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ ووصى ربك ويقول أمر ربك أنهما واوان التصقت أحدهما بالصاد(١) وأخرجه عن طريق أخرى عن الضحاك قال كيف تقرأ هذا الحرف وقضى ربك فقال ليس كذلك نقرؤها نحن ولا ابن عباس إنما هى ووصى ربك وكذلك كانت تقرأ وتكتب فاستمد كاتبكم فاحتمل القلم مدادا كثيرا فالتزقت الواو بالصاد" (٢). فهذه كلها إما أن تكون روايات متهافتة وإما أن تكون من باب "وكم من عائب قولا صحيحا. وآفته من الفهم السقيم" وهذا واضح عند مقارنة دعاوى القوم بنص التنزيل العظيم تعالى عما يزعمون ولا يخالجنا شك فى أن هذا الكلام بأسره موضوع أو موهوم حتى عندما يحكم المحدثون بأن فيه ما هو صحيح على شرط الشيخين فلا عائشة ولا عثمان ومن باب أولى عروة وعكرمة وغيرهما يمكن يقولوا ذلك أو أن يحملوننا على قبوله ولأسهل علينا أن نقول إن القرآن أراد أن يحطم وثنية هؤلاء النحاة الذين يعبدون القواعد دون المعانى كما أراد أن يحطم وثنية الذين يعبدون الملوك والأباء والشموس والأقمار دون خالقها جميعا .

وقد كانت هذه الأقوال المنحولة والادعاءات الموضوعة وأمثالها هى عدة المستشرقين وأعداء الإسلام فى الكيد له، وبناء الأحكام عليها ..

وقد تقصى كاتب مجتهد بعض مواقف اللغويين المجافية للنصوص القرآنية، مما أدى به إلى المطالبة بتعديل أربعين قاعدة من القواعد

---

(١) ليس أدل على فساد هذه الأقاويل من أن الله تعالى ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بالتوحيد مباشرة ومعطوفا عليه، وتوحيد الله وما يعطف عليه لا يكون توصية، ولكن وجوبا وقضاء كما أن تناسق الإيقاع يرفض ووصى ويوجب "وقضى" .

(٢) الإتقان للسيوطى ج١ ص ١٨٥ .

النحوية[1] أدرجها فى كتابه "نظرية النحو القرآنى" ونحن نعرض هنا باختصار إفتياتات بعض اللغويين على القرآن الكريم تمسكا منهم بنظرياتهم ووصفهم بعض القراءات الثابتة بالرداءة والقبح، وما إلى ذلك من الصفات التى لا تناسب القرآن الكريم .

من ذلك أنهم أرادوا قراءة الآية ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ بجر الأرحام عطفا على الضمير المخفوض بدون إعادة الخافض، وهى قراءة متواترة عن النبى قرأ بها سلف الأمة واتصلت بأكابر قراء الصحابة.. لأنها تخالف قاعدة "لا يجوز عطف الاسم الظاهر على الضمير المخفوض إلا بعد إعادة الخافض" وردوها، وخطئوها وحرموا القراءة بها تحريما قاطعا قال المبرد " لو أنى صليت خلف إمام يقرؤها لقطعت صلاتى وحملت نعلى ومضيت " ..

وقال النحويون "لا يجوز وقوع الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب" مع أن فى القرآن الكريم ثمانى عشرة آية وقع فيها الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب مثل ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ و ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ و ﴿ لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ﴾

ومن قواعدهم يجب فتح ياء المتكلم ولا يجوز كسرها فى نحو مصرخى { سورة إبراهيم آيه ٢٢} وتبعا لهذا أنكروها ورموها بالقبح واللحن والرداءة والغلط والوهم والشذوذ وقالوا " إنها رديئة مرذولة " ..

وقال النحاة "يمتنع وقوع "كل" المضافة للنكرة مفعولا به، مع أن هذا أمر جاء فى القرآن الكريم ٣٧ مرة.. وجاءت خمس مرات فى سورة الأنعام.. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها. {٢٥} وسع ربى كل شئ علما. {٨٠} وحشرنا عليهم كل شئ قبلا.{١١١} وخلق كل شئ. {١٠١} وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر. {١٤٦} .

---

(٣) هو الدكتور أحمد مكى الأنصارى وهو أستاذ جامعى متمكن وكتابه هو "نظرية النحو القرآنى" ١٩٨٤ - أنظر الصفحات ص ٣٨، ٥٢، ٥٣، ٧٥، ١١٠، ١١٢

وضرب المؤلف مثلا لمعارضة النحاة "ما جاء فى تحقيق الهمزتين فى مثل أئمة فى قراءة سبعية متواترة.. بل فى قراءات متعددة متواترة..، ومع ذلك وصفوها باللحن بحجة أنها لا تتفق مع القياس.. ونسوا أن السماع الصحيح الكثير المتواتر.. فوق كل قياس، لأن اللغة تثبت بالسماع الصحيح الكثير قبل أن تثبت بالقياس.. وما أجمل المبدأ القائل : "مقياس الترجيح هو السماع الصحيح" ..

ذلك موقفهم من تحقيق الهمزتين... فلما جاء الإبدال (أى إبدال الهمزة الثانية ياء فى كلمة أئمة) وصفوه باللحن أيضا.. إستمع إلى الزمخشرى يقول: "فأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحن محرف" ..

وقريب من هذا أو اشد منه.. موقفهم من قراءتين جاءتا فى قوله تعالى: ﴿ إن هذان لساحران ﴾ حيث قرأت كلمة "هذان" بالألف مع تشديد النون من "إن" فى قراءة سبعية متواترة.. بل فى قراءات متعددة.. فعارضها بعض النحاة معارضة صريحة.. بل أنكروها إنكارا تاما وقالوا إنها ليست من القرآن لأنها غلط من الكاتب .

فلما جاءتهم قراءة سبعية أخرى بالياء "هذين" عارضوها أيضا معارضة صريحة.. وقالوا: إنها "غلط من الكاتب" أيضا .

وأنظر إلى ركاكة ما يحملهم عليه تمسكهم بقواعدهم فقد قال الله تعالى ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت ﴾ والإعراب الفطرى الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو أن تعرب كلمة "السماء" مبتدأ. وخبره ما بعده "جملة انشقت"، وكذلك الحال فى الآية الأخرى، فالأرض مبتدأ، ما بعده خبر له "جملة مدت"، وبه قال بعض العلماء الإجلاء غير أن جمهور النحويين رفضوا هذا الإعراب الفطرى السليم، وتأولوا الآيات تأويلا يخرجها عن سلاستها المألوفة فى القرآن الكريم فقالوا: التقدير إذا انشقت السماء انشقت، وإذا مدت الأرض مدت،

فالسماء فاعل لفعل محذوف تقديره (انشقت)، والأرض نائب فاعل لفعل محذوف تقديره (مدت) تكلفوا كل ذلك ليخضعوا الآيات الكريمة للقاعدة النحوية التى صنعوها بأيديهم.. تلك التى تقول بوجوب إضافة إذا الشرطية إلى جملة فعلية، وفى هذا يقول ابن مالك .

والزموا إذا إضافة إلى جمل الأفعال كهن إذا اعتلى

* * *

ودخل الاخباريون الحلبة، ولعل أسبقهم وأبرزهم ابن عباس الذى أفردوا كتابا كبيرا لتفسيره ومع هذا فقد قال عنه السيد رشيد رضا ..

".. وأما ما روى عن ابن عباس فى تفسيره فأكثره موضوع لا يصح لأنه مروى من طريق الكذابين الوضاعين كالكلبى والسدى ومقاتل بن سليمان. وذكر ذلك الحافظ السيوطى وسبقه إليه شيخ الإسلام بن تيمية بل إن رواية هؤلاء وإضرابهم التفسير عنه وعن غيره هى المقصودة من قول الإمام أحمد رحمه الله تعالى "ثلاثة كتب لا أصل لها المغازى والملاحم والتفسير" قالوا إنه أراد كتبا مخصوصة فى هذه المعانى الثلاثة غير معتمد عليها لعدم عدالة ناقليها ولزيادة القصاص فيها وذكروا منها تفسير هؤلاء بل نقلوا عن الإمام أنه قال فى تفسير الكلبى "من أوله إلى آخره كذب لا يحل النظر فيه" وقالوا إن كل من ينقل فى تفسيره من الأحاديث الموضوعة لا يوثق بتفسيره بالمأثور ومن هؤلاء الثعلبى والواحدى والزمخشرى والبيضاوى" [(١)] .

وأهم من هذا وأصرح ما ذكره ابن تيمية فى تفسيره سورة النور "وهذه الكتب التى يسميها كثير من الناس كتب تفسير فيها كثير من التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم وقول على الله ورسوله بالرأى بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية " .

---

(١) السيد محمد رشيد رضا رحمه الله فى "الوحدة الإسلامية" والاخوة الدينية (نشرت فى المجلد الثالث والرابع والسادس من المنار) ص ١١ .

"وأما كونه ثابتا عن ابن عباس أو غيره فهذا مما لم يثبت ومعلوم أن فى كتب التفسير من النقل عن ابن عباس من الكذب شئ كثير من رواية الكلبى عن أبى صالح وغيره فلابد من تصحيح النقل لتقوم الحجة"[1]

وهذه الكلمات صريحة فى أن كثيرا من المنقولات عن السلف مكذوبة عليهم وقول على الله ورسوله بالرأى المجرد بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية ومن يطالع كتب التفسير يجد الكثير مما يصدق عليه هذا من إطلاق الآراء، أو الاجتهادات الركيكة أو الاستشهادات الباطلة بأبيات من الشعر ما أنزل الله بها من سلطان ..

**وقد ولع الاخباريون بمجالين كبيرين هما الإسرائيليات وأسباب النزول ..**

ولا يتسع المجال لإيراد، ولو نماذج من الإسرائيليات لأن هذا يتطلب كتابا مستقلا، وقد لفتت الظاهرة إبن تيمية وإبن خلدون. ففند ابن تيمية الاستشهاد بحديث استشفاع آدم بالنبى ﷺ وقال أنه "إنما نقل عن مثل كعب ووهب وابن إسحاق ونحوهم ممن أخذوا ذلك عن مسلمة أهل الكتاب"

وشرح ابن خلدون فى مقدمته أسباب نقل المفسرين هذه الإسرائيليات فقال "والسبب هو أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شئ مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل الكتاب الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها - مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان، والملاحم، وأمثال ذلك، وهؤلاء مثل: كعب الأحبار ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم فامتلأت

(٢) تفسير سورة النور لابن تيمية حققه وخرج أحاديثه محمد ابراهيم زايد وعبد المعطى (دار الوعى - حلب) ص ١٩٠ - ١٩١ .

التفاسير من المنقولات عندهم، وفى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام، فتتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل وتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها، كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنه بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ" [١] .

وفى كتب التفسير من الإسرائيليات "طامات وظلمات" لا يتسع المجال لذكر نماذج منها وقد يكفى لإعطاء الفكرة المطلوبة أن نستشهد هنا ببعض ما جاء فى فهرس كتاب "الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير" للأستاذ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة .

" الإسرائيليات فى قصة أصحاب أهل الكهف - الإسرائيليات فى قصه ذى القرنيين - الإسرائيليات فى قصة يأجوج ومأجوج - الإسرائيليات فى قصة بلقيس ملكة سبأ - الإسرائيليات فى قصة الذبيح وأنه إسحاق وليس إسماعيل عليه السلام - الإسرائيليات فى قصة إلياس عليه السلام - الإسرائيليات فى قصة داود - الإسرائيليات فى قصة سليمان - الإسرائيليات فى قصة أيوب - الإسرائيليات فى قصة إرم ذات العماد - الإسرائيليات فيما يتعلق بعمر الدنيا وبدء الخلق الخ.. - ما يتعلق بعمر الدنيا - ما يتعلق بخلق الشمس - ما يتعلق بتعليل بعض الظواهر الكونية - ما ذكره المفسرون فى الرعد والبرق - جبل ق المزعوم وحدوث الزلازل - الإسرائيليات فى تفسير (ن والقلم) الخ ..."

* * *

هذا عن الإسرائيليات، أما أسباب النزول، فمن أشهر الكتب "كتاب لباب النقول فى أسباب النزول" للسيوطى الذى جمع فيه أفضل ما وجده فى كتب أسباب النزول فضلا عن اجتهاده الخاص. ومع هذا فقد تضمن الأمثلة الآتية :

---

(١) مقدمة بن خلدون ص ٤٠٤ طبعة كتاب الشعب .

١. ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليـهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشـح وان تحسـنوا وتتقوا فإن الله بما تعملون خبيرا ﴾ { ١٢٨ النساء.}

روى أبو داود والحاكم عن عائشة قالت فرقـت سـودة أن يفارقـها رسول الله ﷺ حين أسنت فقالت يومى لعائشـة فـنزلت الآيـة .. وروى الترمذى مثله عن ابن عباس .

ونقول إن هذا سبب لا يمكن أن ينسب إلى النبـى ﷺ ولا إلـى أم المؤمنين سودة وصياغة الآية تستبعد أن يقصد بها الرسول وأم المؤمنين .

٢. ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ {٢٤ الحجر}.

روى الترمذى والنسائى والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال: كـانت امرأة تصلى خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس – فكان بعـض القوم يتقدم حتى يكون فى النصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتـى يكون فى الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت أبطيه فـأنزل الله ولقـد علمنا المستقدمين الآية .

وأخرج ابن مردويه عن داوود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيـف الأنصارى ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ أنزلـت فى سبيل الله قال لا، ولكنها فى صفوف الصلاة .

ونقول أن ذلك يخالف الوقائع. ويناقض السياق وقد فسر السـيوطى نفسه فى تفسير الجلالين الشق الأول من الآية "أى من تقدم من الخلق مـن لدن آدم" والشق الثانى "المتأخرين إلى يوم القيامة" ..

٣. ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قـوة انكاثـا تتخـذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ { النحل ٩١ } .

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن أبى حفص قال كانت سيده الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف فنزلت ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها!!

٤. ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال أنزلت ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة ﴾ فقالوا يا رسول الله سنين أو شهورا فأنزل الله ﴿ سنين وازدادوا تسعا ﴾ .

٥. ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ { الحج ٥٢ } .

أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر من طريق بسند صحيح عن سعيد ابن جبير قال: قرأ النبى ﷺ بمكة "والنجم" فلما بلغ "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى" ألقى الشيطان على لسانه "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم - فسجد وسجدوا فنزلت ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ﴾ { الآية } .

وأخرجه البزار وابن مردويه من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسبه وقال لا يرى متصلا إلا بهذا الإسناد وتفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور .

وأخرجه البخارى عن ابن عباس بسند فيه الواقدى وابن مردويه عن طريق الكلبى عن ابن أبى صالح عن ابن عباس وابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس .

وأورده ابن اسحق فى السيرة عن محمد بن كعب وموسى بن عقبة عن ابن شهاب وابن جرير عن محمد بن قيس وابن حاتم عن السدى كلهم بمعنى واحد .

وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى سعيد بن جبير الأولى .

قال الحافظ بن حجر ولكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا، على أن لها طريقين صحيحين مرسلين أخرجهما ابن جرير أحدهما من طريق الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام والآخر من طريق داود عن هند عن أبى العالية ولا عبرة بقول ابن العربى وعياض أن هذه الروايات باطلة ولا أصل لها .

ونقول أن هذا الكلام يوضح لنا مرة أخرى هيمنة الإسناد، فمع أن بعض الروايات اعتبرت باطلة، إلا أن الطرق الأخرى التى ظاهرها رواة آخرون أقوى كانت سببا لاستبعاد كل ما وجه لها من نقد، مع أن الأمر يتعلق بشخص النبى ﷺ وأدائه للرسالة، وليس هناك ما هو أخطر من هذا وأدعى لدفع مثل هذه المفتريات، وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات، أفما كان واجبا أن تستبعد هذه الشبهات المتكاثفة التى جاءت فى الرواية من ادعاءات بعيدة فى حد ذاتها عن الحقيقة، وقد علق مصحح لباب المنقول "المطبوع على هامش تفسير الجلالين بمطبعة البابى الحلبى سنة ١٣٤٣هـ

"العقيدة تعتمد اليقين أو ما يقاربه فى السند لأنها يقين فى موضوعها وآذن الحق مع عياض وابن العربى وغيرهم من المحققين، بل العقل فى هذا الموضوع ينفر كل النفور من صحة هذه الرواية" .

٦. ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ﴾ .

عن السدى قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت الآية .

وأخرج ابن سعد عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم نزلت فى طلحة بن عبيد الله لأنه قال إذا توفى رسول الله تزوجت عائشة .

وهذا كلام لا يقبل وطلحة بن عبيد الله من السابقين إلى الإيمان، ومن العشرة المشهود لهم بالجنة، ومعاذ الله أن يقول ما افتراه عليه الرواة، وما لا يقوله إلا أعرابى جلف. كما جاء فى بعض الروايات الأخرى.

٧. ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانى أن أخرج وقد خلت القـــرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول مــا هــذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

أخرج ابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى عبد الرحمن ابن أبى بكر قال لأبويه وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم فكانا يأمرانه بالإسلام فـيرد عليهما ويكذبهما ويقول فأين فلان وفلان يعنى مشايخ قريش ممن قد مــات، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه فنزلت توبته فى هذه الآية ﴿ ولكل درجات ممــا عملوا ليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن طريق العوفى عن ابن عباس مثله .

ونقول أن وقائع التاريخ وسياق الآية تكذبان هذا الزعم، وقد كذبــت عائشة هذه الدعوى وقال الحافظ بن حجر ونفى عائشة أصح إسنادا وأولــى بالقبول ..

٨. وعمد هؤلاء إلى سورة من أجمل سور القـــرآن وأشــدها تــأثيراً وتعبيراً عن إحدى الفترات النفسية التى تعتور الأنبياء والمفكرين وأضفــى الله تعالى على نبيه فيها من كرمه ورعايته ما يعيد إليه الأمل هى ســـورة الضحى.. فجعلوا سببها وجود جرو تحت سرير النبى: قال الحـــافظ ابــن حجر "قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها ســبب نــزول الآية غريب، بل شاذ مردود بما فى الصحيح" وما فى الصحيح أفضل مــن هذا، ولكنه يعرض بطريقة تهبط بروعة السورة وعمق المناسبة ومناخـــها النفسى وما توحى به من معاناة ..

٩. وفى تعليل نزول آية ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فــأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقســطين ﴾ {٨ الحجرات} هذه الآية المعجزة التى تقدم أساساً لمحكمة عـــدل دوليــة، وتضع قواعد عمله[١] يقول بعض المفسرين إنها "نزلت فى قضية هـــى أن

---

(١) أنظر محكمة العدل الدولية الإسلامية (الآية ٨ من ســورة الحجـرات) مطبوعــات الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل .

النبى ﷺ ركب حمارا، ومر على ابن أُبَىّ، فبال الحمار فسد بن أبى أنفه، فقال ابن رواحه والله لبول حماره أطيب ريحا من مسكك فكان بين قوميهما ضرب بالأيدى والنعال والسعف" فانظر كيف هوى هؤلاء بهذه الآية من روعة التقنين المحكم إلى بول حمار .

وقد ادعوا أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب وضربوا المثل بأنه أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾. وقال لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن أجمعون حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب. حين سألهم النبى ﷺ عن شئ فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه انهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك . (رواه الشيخان)

فتفسير الآية طبقا لهذه الواقعة يمكن أن يجعل الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب فى حين أن الآية عكس ذلك والمعنى فيها عام والجزاء ينطبق على من تتملكه تلك الحالة. ومفتاح الآية أن القرآن الكريم يستخدم كلمة "الفرح" فى أغلب الحالات بالمعنى السيئ لها أى الزهو والفخر والغرور والاستعلاء كما تدل على ذلك الآيات ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ ، ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ﴾ ، ﴿ فيقول ذهب السيئات عنى أنه لفرح فخور ﴾ ، ويوحى تعبير ﴿ بمفازة من العذاب ﴾ بأن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا يرون مسلكهم هذا هينا بعيدا عن المساءلة، كما تصور مروان فى حين أنه يتضمن بذرة أعظم الموبقات قاطبة ألا وهو الغرور والاستعلاء والادعاء .

ولم يكن ذنب إبليس أكثر من ذلك ولعل الآية – والله أعلم – قد أنزلت فى أمثال مروان، ولعل الآية لم تحركه إلا لأنه استشعر فعلا فى نفسه ما حذرت منه الآية، والآية تقدم مثالا نمطيا لتفسير يقوم على فهم القرآن وتفسير أخر يقوم على روايات وكيف أن الأول يجعل من القرآن

كتاب هداية مطلقة عامة، والثانى يجعل منه كتاب رواية مقيدة خاصة كما أن استشهاد الكتاب المعاصرين وأساتذة الجامعات بهذه الواقعة نقلا عن الكتب القديمة وعرضها كما عرضها القدماء فى كتبهم المقررة لطلبة الجامعات دون أن يخطر لواحد منهم أن يعمل ذهنه وهم أساتذة يعلمون الجيل أو يوجهون الجماهير، يوضح جريرة العقلية النقلية ومدى شللها لبواعث التفكير حتى لدى أساتذة الجامعة فضلا عن طلبتها أو عامة الناس

* * *

وتعد دعوى النسخ من أكبر ما نسب إلى القرآن واعتبر معرفته من أهم ما يجب لمفسر وجرت قالتهم لمن لم يعرف الناسخ والمنسوخ "هلكت وأهلكت" !

وما من مفارقة تثير الذهول كهذه، فبدعوى خدمة القرآن أعمل هؤلاء المفسرون سكين النسخ وبتروا مئات الآيات.. فهل يختلف عملهم هذا من عمل "جزار اليهود بالبقر.." كما رأى شوقى "برأها من العيوب.. وعقر!! "

لا أدرى كيف واتت هؤلاء المفسرين الجرأة على هذا الجرم العظيم.. وأغرب من ذلك وأعجب أنهم رأوا فى المفسر الوحيد الذى أنكر النسخ أنه "جاهل بهذه الشريعة جهلاً فظيعاً كما قال الشوكانى فى إرشاد الفحول "أو أن قوله ضعيف مردود مرذول" كما قال ابن كثير .

وجاء فى "فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت "وأجمع أهل الشرائع على وقوعه سمعا خلافا لأبى مسلم الأصفهانى الجاحظ من شياطين المعتزلة وهو لا يصح من مسلم ممن يدعى إسلامه إلا بتأويل" .

وقال السيوطى "والناس فى هذا بين طرفى نقيض فمن قائل لا يقبل فى النسخ أخبار الآحاد العدول ومن متساهل يكتفى فيه بقول مفسر أو مجتهد والصواب خلافهما " .

فانظر كيف أصبح النسخ لعبة "المتساهلين" ..

ودفع النسخ أحد الشيوخ المعاصرين لأن يقول "فالنسخ يتمشى مع العقل البشرى وأنه لا معارضة بينهما أصلا فإن الشرائع السماوية ما هى إلا كالقوانين التى يضعها الناس لأنفسهم لتحقيق المصلحة العامة والخاصة بالناس وأن هذه القوانين تعدل وتغير حسب مقتضيات الزمن والتقدم البشرى". وقد جاءت هذه الفقرة فى كتاب له صدر سنة ١٩٧٨ وأعادها بعلاتها فى كتاب آخر له سنة ١٩٨٠ (١) .

وجاء فى كلام أحد المدافعين – أو قل المتشنجين – عن النسخ عند تفسيره للآية ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير ﴾ .

"ووجه الدلالة أن الآية صريحة فى جواز النسخ على الله تعالى" .

والعجب أن الذين يصدرون هذه التعبيرات الفجة يعيرون من ينكر النسخ بإساءة الأدب! لأنه – كما اتهموا أبا مسلم "أساء الأدب مع الله فى تحمسه لرأى قائم على تحاشى لفظ اختاره جلت قدرته ودافع عن معناه بمثل قوله "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها.. وهل بعد اختيار الله اختيار وهل بعد تعبير القرآن تعبير ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ وهذا معنى ذكره بالنص تقريبا عدد من المناصرين لقضية النسخ من المعاصرين الذين ينقلون بعضهم عن بعض، ويتلقف المتأخر ما ذكره المتقدم .

ويماثل ذلك ادعاء بعض العلماء المعاصرين " إن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين اتخذوا من النسخ فى الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة طعنوا بها فى صدر الدين الحنيف ونالوا من قدسية القرآن الكريم وقد أحكموا شراك شبهاتهم واجتهدوا فى ترويج مطاعنهم حتى سحروا عقول بعض المنتسبين إلى العلم والدين من المسلمين فجحدوا وقوع النسخ وهو واقع وأمعنوا فى هذا الجحود الذى ركبوا له أخشن المراكب من تمحلات ساقطة وتأويلات غير سائغة " (٢) .

---

(١) الدكتور شعبان محمد إسماعيل "مع القرآن" ص ٥١٠ (١٩٧٨) و "المدخل لدراسة القرآن" ص ٤٦٠ (١٩٨٠) .

(٢) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ج٢ ص ٧٠ .

فهل الذين يقولون أن القرآن محكم هم الذين ينالون من "قدسية القرآن" أو هم الذين يعطلون المئات من آياته المثبتة وأوامره ونواهيه بدعاوى ثبت زيفها حتى من أنصار النسخ أنفسهم ؟؟.

وأغرب من هذا وأعجب أن يجيزوا للسنة أن تنسخ القرآن! بحجة أنها وحى! وهنا يصل الإغراض أو الغفلة بصاحبه إلى منتهاه، وعندما يرفض الشافعى ذلك، فإن الفقهاء المتأخرين أنكروا عليه هذا ورأوا فيه سقطة كبيرة فقال الكيا الهراسي "هفوات الكبار على أقدارهم ومن عد خطؤه عظم قدره" وكان عبد الجبار بن احمد كثيراً ما ينظر فى مذهب الشافعى فى الأصول والفروع فلما وصل إلى هذا الموضع قال "هذا الرجل كبير ولكن الحق أكبر منه !" وتطلب الأمر أن يتحايل أنصار الشافعى للشافعى وأن يبحثوا عن محامل يحمل عليها كلامه حتى يمكن أن يتفق مع التيار الغالب الذى كان يجيز نسخ السنة للقرآن متعللين بتأويلات متعسفة .

وذهب المفسرون مذاهب شتى فى عدد الآيات المنسوخة فذهب ابن الجوزى أنها {٢٤٧} آية. وذهب أبو عبد الله بن حزم "وهو غير أبو محمد بن حزم الأندلسى الظاهرى المشهور" إلى أنها {٢٠٨} آية. وعند أبى القاسم هبه الله بن سلامة {٢١٢} آية. وعند أبى جعفر النحاس {١٣٤} آية. وعند عبد القادر البغدادى {٦٦} آية .

وقد عالجنا موضوع النسخ فى سبعين صفحة من كتابنا " الأصلان العظيمان الكتاب والسُنة " وأثبتنا أن القرآن لا يستخدم كلمة آية كما نستخدمها نحن بمعنى "نص" ولكن بمعنى قرينة أو معجزة أو دلالة وأوردنا كل المواضع التى جاءت فيها كلمة آية فى القرآن "٨٢ موضعا" وكلها بلا استثناء بهذا المعنى، ومن هنا فإن بناءهم النسخ على ما جاء فى سورة البقرة ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها الخ.. ﴾ لا يجوز الاستدلال به فضلاً عن أن القرآن أستخدم كلمة نسخ بمعنى إثبات أو كتابة فالدعوى ساقطة تماما ..

* * *

ولا نقف جريرة دعوى النسخ على أنها تنسخ كل آيات الحكمة والسماحة والحرية الخ... بل إنها فتحت بابا نعوذ بالله منه، ولا يخالجنا أنه كله من كيد شياطين الأنس من اليهود أو أعداء الإسلام وأن **كل ما تضمنه من إسناد يصل إلى عائشة وعمر بن الخطاب هو محض تلفيق** وكان يجب أن لا تدون، وإذا دونت فعلى أساس أنها أمثلة للدرجة الوقحة التى وصل إليها الوضع .

**ولكى يأخذ القارئ فكرة عنها نورد بعض نماذج منها :**

١. قالت عائشة كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن رواه الشيخان قال السيوطى "وقد تكلموا فى قولها وهن مما يقرأ من القرآن. فإن ظاهره بقاء التلاوة وليس كذلك وأجيب بأن المراد قارب الوفاة أو أن التلاوة نسخت أيضا ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ فتوفى وبعض الناس يقرؤها وقال أبو موسى الأشعرى نزلت ثم رفعت وقال مكى هذا المثال فيه المنسوخ غير متلو والناسخ أيضا غير متلو ولا أعلم له نظيرا .

٢. ورووا عن ابن عمر أنه قال لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله قد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر

٣. وعن عائشة قالت كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى مائتى آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن .

٤. وعن ذر بن حبيش قال لى أبى بن كعب كم تعد سورة الأحزاب قلت اثنتين وسبعين آية أو ثلاثة وسبعين آية قال إن كانت لتعدل سورة البقرة وان كنا لنقرأ فيها آية الرجم قلت وما آية الرجم قال إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم .

٥. وعن حميدة بنت أبى يونس قالت قرأ علىّ أبى وهو ابن ثمانين سنة فى مصحف عائشة أن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا

صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون الصفوف الأولى قالت قبل أن يغير عثمان المصاحف .

٦. وعن عطاء بن يسار عن أبى واقد الليثى قال كان رسول الله إذا أوحى إليه أتيناه فعلمنا مما أوحى إليه قال فجئت ذات يوم فقال أن الله يقول إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكون إليه الثانى ولو كان إليه الثانى لأحب أن يكون الثالث ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب .

٧. وأخرج الحاكم فى المستدرك عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ أن الله يأمرنى أن أقرأ عليك القرآن فقرأ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ومن بقيتها لو أن ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه سأل ثانيا وأن سأل ثانيا فأعطيه سأل ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب وأن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل فلن يكفره .

٨. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى حرب بن أبى الأسود عن أبى موسى الاشعرى قال نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظت منها أن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لإبن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب .

٩. وأخرج بن أبى حاتم عن أبى موسى الاشعرى قال كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات ما نسيناها غير أنى حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا مالا تفعلون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة .

١٠. قال أبو عبيد حدثنا حجاج عن سعيد عن الحكم بن عتيبة عن عدى بن عدى قال عمر كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم ثم قال لزيد ابن ثابت كذلك قال نعم .

١١. حدثنا أبن أبى مريم عن نافع بن عمر الجمحى حدثنى بـــن أبـــى مليكه عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عـــوف ألـــم تجد فيما أنزل علينا أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة فأنا لا نجدهــــا قـــال سقطت فيما أسقط من القرآن .

١٢. حدثنا ابن أبى مريم عن أبن لهيعة عن يزيد بن عمرو المغـــافرى عن أبى سفيان الكلاعى أن مسلمة بن مخلد الأنصارى قال لهم ذات يـــوم أخبرونى بآيتين فى القرآن لم يكتبا فى المصحف فلم يخبروه وعندهم أبـــو الكنود سعد بن مالك فقال ابن مسلمة أن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فـــى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المصلحــــون والذيـــن آووهـــم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفـــس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون .

١٣. وأخرج الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر قال قرأ رجلان ســـورة اقرأهما رسول الله ﷺ فكانا يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلـــم يقـــدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقـــال أنها مما نسخ فالهوا عنها .

١٤. وفى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا وقنت يدعو على قاتليهم قال أنس نزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع أن بلغـوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا .

١٥. وفى المستدرك عن حذيفة قال ما تقرأون ربعها يعنى براءة .

١٦. ورووا عن عبد الله بن زرير الغافقى أنه قال لعبـــد الملـــك بـــن مروان عن على بن أبى طالب " لقد علمنى سورتين علمهما اياه رسول الله ﷺ ما علمتهما أنت ولا أبوك اللهم أنا نستعينك ونثنى عليـــك ولا نكفـــرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نســـعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك بالكفار .

١٧. وأخرج البيهقى عن طريق سفيان الثورى عن جريج عن عطـــاء عن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقـــال بســـم الله

الرحمن الرحيم اللهم نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد ونرجو رحمتك ونخشى نقمتك إن عذابك بالكافرين .

وتطلق بعض المصادر على هذا النص سورتى الحفد والخلع وتزعم أنهما كانا فى مصحف بعض الصحابة .

**نقول للذين جاءوا بهذه المؤتفكات ويلكم ! ألم تسمعوا قول الله ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فكيف تتأتى هذه التخرصات مع حفظ الله ؟**

* * *

كيف أذن جازت دعوى النسخ على الأئمة الأعلام ؟ جازت لأنهم تصوروا أنه لا يصح أن يتضمن القرآن أحكاماً متفاوتة فى الحالة الواحدة. لأنهم يريدون أن يأخذوا الناس بحكم واحد، ولو استطاعوا أن يضعوهم على مثل حد السيف لفعلوا، ولكن القرآن لا يقبل هذا وهو لم ينزل للعرب وحدهم وإنما نزل للبشرية جميعاً، وهو لم ينزل لعصر واحد، ولكن نزل لكل العصور. فكان لابد أن يوجد التفاوت والتعدد، والبدائل فما يصلح لشعب وعهد قد لا يصلح لشعب وعهد آخر والمسلم ما دام يأخذ بآية فإنه يأوى إلى ركن حصين ويمسك بدليل مكين أما الرد عليه بالنسخ فمردود، لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضاً، فالقرآن كما قال الرسول " القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه " وكما قال الرسول فى حديث آخر " أن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا. فما عرفتم فأعملوا به، وما تشابه فآمنوا به" .

وقد نزلت آيات تحريم الخمر بتدريج لأن العرب ما كان يمكن أن يقلعوا مرة واحدة عن الخمر ولم تنسخ الآية الأخيرة الآيات الأولى **لأن من الممكن أن تتكرر التجربة فيطبق التدريج لا التحريم، وقد حدث هذا بالفعل** عندما أراد القيصر الوثنى فلاديمير قيصر روسيا سنة ٩٨٧ أن يختار لشعبه ديناً سماوياً فاستقدم ثلاثة من علماء الإسلام والمسيحية واليهودية، وكان ميالاً للإسلام ولكن ما أن قيل له إن الإسلام يحرم الخمر حتى قال

"أسف إن شعبى لا يطيق الاستغناء عن الفودكا " فلو طبق فى روسيا ما طبق فى العرب، بمعنى أن لا يصدم الروس بالتحريم، وإنما يستخدم التدريج حتى يتأصل الإسلام فى قلوبهم ويمكن التحريم لكسب الإسلام شعب روسيا بأسره ولتغير التاريخ .

**من هذا العرض لمعالجة المفسرين يتضح لنا أن اللغويين منهم إفتاتوا على لغة القرآن وأسلوبه، وأساءوا فهمه، وأرادوا تحكيم صناعتهم وما وضعوه من قواعد، وأن الأخباريين سودوا صفحات كتبهم بالإسرائيليات وبكل ما جاء من "لغو" فى القرآن وأعملوا سكين النسخ دون أن تأخذهم رأفة ..**

**ويماثل هذا الخطأ فى المعالجة أنهم عمدوا إلى تقطيع أوصال القرآن كل آية على حدة فى حين أن القرآن لا يحدث أثره أو يحقق رسالته إلا نتيجة لتلاحم آياته بعضها ببعض، وتقطيع أوصال القرآن كان يعنى قتله، ثم العكوف على دراسة كل شلو من أشلائه.. وهو ما يمكن أن يقدم لنا مادة أو معلومة، ولكنه لا يقدم حياة، ولا يثير عاطفة ولا يبعث على عمل، ولا يؤدى إلى هداية ...**

**وهذا هو المضمون الحقيقى لتفريغ القرآن من ثوريته ..**

وعندما يفكر الإنسان مليا فيما فعله المفسرون وما عكفوا عليه القرون الطوال فإن الحيرة تتملكه كيف هان عليهم القرآن حتى يقحموا هذه النقول الركيكة والأقوال السقيمة والمزاعم المسفة.. وكيف لم تتوقف أيديهم وهى تعُمل سكين النسخ بترا وتقطيعا، وكيف يتفق ذلك مع ما روى عن هؤلاء المفسرين من تقوى وإخلاص فإذا لم يكن قد تحرك فى نفوسهم أو حاك فى قلوبهم شئ فإن هذا يكون دليلاً فذاً على قوة روح العصر، وأن عوامل التحول التى أشرنا إليها وصلت إلى النقيض بحيث إرتكب هؤلاء الأسلاف جريمة فى حق القرآن وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وقدموا شواهد لأعداء القرآن وهم يحسبون أنهم يدافعون عن القرآن .

**لعل الصوت الوحيد فى العهد الأول الذى إستشعر الخطأ كان صوت أحمد بن حنبل – عندما قال "ثلاثة كتب لا أصل لها التفاسير، والمغازى، والملاحم" ..**

**وفى عصرنا الحديث ارتفع صوت عالمين من خيرة الفقهاء ...**

**هذا هو السيد رشيد رضا يقول :**

"ثم استقر الرأى العام عند جماهير المسلمين بعموم التقليد على أن عقائد الإسلام يجب أخذها من كتب الكلام، وأحكامه من كتب الفقه المذهبية وآدابه وأخلاقه من كتب التصوف وبهذا أمست فائدة القرآن محصورة فى التبرك والتعبد بتلاوة ألفاظه – ندبا لا وجوبا – بغير فهم له ولا عمل به، بل لما ورد من أن لتاليه بكل حرف عشر حسنات، وأنه لا يفترض على **مسلم أن يعلم أو يقرأ منه شيئاً إلا ما تصح به صلاته كسورة الفاتحة، بل هبط بكثير منهم الجهل بالقرآن والأعراض عن القرآن والكفر بالقرآن أن حرموا أخذ الدين من القرآن" .**

**وهذا هو الفقيه المجتهد الشيخ محمود شلتوت يقول :**

".. وكثيراً ما تفسر الآية على مقتضى القواعد الأصولية التى استخلصها أرباب المذاهب من الفروع الفقهية واتخذوها أصولا تحاكموا إليها فى فهم القرآن والسنة واستنباط الأحكام. ولم يقف ذلك عند التشريع وآيات الأحكام. بل تعدى إلى العقائد وآراء الفرق، فتراهم يقولون هذه الآية لا تتفق ومذهب أهل السنة فهى مؤولة بكذا وكذا، وكما يقولون هذه الآية لا تتفق ومذهب الحنفية وتأويلها كذا وكذا، وكما يقولون هذه الآية أو تلك الآيات – وربما نيفت على السبعين – لا تتفق ومشروعية القتال فهى منسوخة .

**وهكذا صار القرآن فرعا بعد أن كان أصلا وتابعا بعد أن كان متبوعا وموزونا بغيره بعد أن كان ميزانا. يقول الله تعالى ﴿ فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته الصحيحة، ولكن هؤلاء عكسوا القضية وقلبوا التشريع وردوا كتاب الله وسنة رسوله إلى ما لهم من آراء ومن مذاهب .**

- ٢ -

# إيثار المنهج التقليدى النقلى على المنهج التحررى القرآنى

لم يقتصر افتيات الفقهاء على ما وضعوه من غشاوات التفسير التى أشرنا إليها فى الفصل السابق. بل إمتد أيضا إلى السنة التى هى عدتهم وعمادهم. لأن السنة وإن كانت من القرآن بمثابة التطبيق من المثال، وبالتالى تكون محكومة بمقتضيات الواقع، إلا أنها ما كانت لتخالف روح القرآن ولهذا اتسمت بقدر من العقلانية والتحررية. ولكن لما كانت قوى التحول التى أشرنا إليها والتى قضت على الخلافة الراشدة وجاءت بالملك العضوض والحكم الاستبدادى قد ضيقت السبل على الفقهاء، فإنهم أبدعوا منهجا يتفق مع الأوضاع التى كانت تضيق بكل تحررية، وترفض إعمال العقل ولا تسمح إلا بالعمل فى إطار الوضع القائم لهذا فإن الفقهاء إفتاتوا على السنة أيضا، ولا جدال أن هذا كان وراء وضع أحاديث عديدة لتتلاءم مع الأوضاع السائدة، فإذا ظهرت الحاجة ابتدعت الوسيلة. وقد يكون هذا المنهج أكثر وضوحا وصراحة فى قسرهم وتطويعهم لأحاديث لتتفق معهم، فالحديث النبوى المشهور عن معاذ عندما أجاب الرسول بم يقض فيما لم يأت فى القرآن أو السنة "أجتهد رأيى ولا الو" أصبح فى أيدى الفقهاء مخالفا لنصه وروحه إذ إعتبر الفقهاء أن الاجتهاد ليس إلا قياسا فإذا إتحدت العلة فى قضية جديدة، مع قضية قديمة جاء فيها قرآن أو سنة، حكم فيها بما حكم فى الأولى، وبهذه الطريقة أصبح الاجتهاد قياسا (كما صرح بذلك الشافعى) وقياسا محدودا مبنيا على حالة واحدة هى اتحاد العلة، وأين هذا من كلمة معاذ الطليقة الحرة "أجتهد رأيى ولا الو .."

وكان هذا المنهج أى الابتعاد عن إعمال العقل أو تقبل الحرية وراء تفضيلهم للحديث الضعيف على القياس، وهو مبدأ أخذ به معظم الأئمة كما أثبتنا ذلك فى الجزء الثانى من كتاب "نحو فقه جديد" وهو الخاص بالسنة[1] **إذ هو فى حقيقة الحال لا يعد إعمالاً للسنة قدر ما يعد فراراً من استخدام العقل أو إبداء الرأى .**

وأصرح من هذا كله إغلاقهم باب الاجتهاد بالكلية، وكان السبب الذى أبداه بعضهم أقبح من الذنب. ذلك أنهم رأوا أنه لا يمكن أن يظهر مجتهد فى مثل منزلة الأئمة الأربعة. فكأنهم تألوا على الله وتحكموا فى المصائر ..

وأعجب شئ فى هذه المأساة، وما يدل على قوة وتغلغل روح التقليد أن أئمة المذاهب الأربعة أنفسهم وجهوا الناس لعدم الالتزام – ضرورة – بهم وأن آراءهم صواب يحتمل الخطأ ..

كان العصر عصر انغلاق.. وكان لابد أن يكون المذهب مذهب انغلاق فعجزوا من التكييف السليم للسنة .

* * *

**لقد وضع الله تعالى مستويين للتشريع :**

**الأول: مستوى التأبيد**، وهو خاص بالمبادئ التى تكون واجبة التطبيق فى كل زمان ومكان، وهذا المستوى لا نجده إلا فى القرآن.. وهو سر اقتصار القرآن على الكليات العامة دون التفاصيل فى مجال الأعمال فقد ذكر القرآن صلاة وزكاة، وحج وصوم، ولكن لم يحدد تفاصيل ذلك. لحكمة بالطبع، هى أنه لو ذكر تفاصيل لربما كان فيها ما يوجب حرجا على أجيال ستأتى فى أزمان مقبلة ولشعوب أخرى ستؤمن بالإسلام، ولهذا لم يذكر القرآن تفاصيل، ولكنه أسهب وتوسع فى ذكر القيم من حرية، وعذل، وكرم، ومساواة، وصدق الخ ... لأن هذه القيم هى معايير للعمل

---

(١) أنظر كتاب السنة من ص ١٠٤ إلى ص ١٠٨ .

والسلوك وبمثابة النجوم التى تهدى الناس وتحول دون الضلال أو الانحراف، ومن هنا كان لهذه القيم طبيعة التأبيد ..

**أما المستوى الثانى:** فهو مستوى تطبيق المبادئ التى أشار إليها القرآن، ولما كان التطبيق لا يعنى إلا التفاصيل فقد أوكل القرآن مهمة وضع هذه التفاصيل إلى الرسول فيما أطلق عليه "البيان" وقام الرسول بذلك بناء على وحى سنى يختلف كيفية ومنزلة عن الوحى القرآنى[1] - فعرف المسلمين كيف تقام الصلاة وعدد ركعاتها وسجداتها وماذا يقال فى كل منها وكيف يؤدى الصيام - وعرفهم على مناسك وشعائر الحج ..

ولكن الرسول فى لفتة بارعة، ولها مغزى عظيم **نهى عن أن يكتب حديثه. فميز بذلك بين سنة عملية** رآها المسلمون جميعاً وشاهدوها ونقلها جيل الرسول إلى الجيل الذى جاء بعده، وهذا الجيل الثانى إلى الجيل الثالث حتى وصلت إلينا، **وهذه فى حقيقة الحال هى الجديرة بكلمة سنة، لأن سنة تعنى فى اللغة ممارسة ما.. وليست حديثا يقال.** ميز الرسول بين هذه السنة العملية وبين الحديث الذى يغلب أن يتناول تفاصيل عديدة أو توجهات قد لا تتضمنها السنة العملية، وقد نهى الرسول عن أن يكتبوا حديثه، وأمر من كتب شيئاً بمحوه، وهى قضية ثابتة لا داعى للتمحك والمحاجاة فيها، وأن يكون الرسول قد أذن لواحد أو أثنين فى الكتابة يدل على أن الأصل هو عدم الكتابة، وأن الإذن استثناء، ولو كان تدوين السنة واجباً لقام بذلك أبو بكر الذى أرسل جيش أسامة فى وقت ثار العرب فيه على الإسلام ووضعوا الخطط للهجوم على المدينة لأنه ما كان يقبل هوادة فى تطبيق أمر الرسول، ولم يدون عمر أو عثمان أو على السنة، وإنما دونت السنة **على رأس المائة الأولى فى عهد عمر بن عبد العزيز. ونهى الرسول عن تدوين حديثه إنما يعود لأن الرسول رفض أن يكون لحديثه بما فيه من تفاصيل صفة التأبيد التى يكتسبها بالكتابة، لأن هذا التأبيد هو ما رفضه القرآن.** إذ لو أراده لأدرجه وذكره، ومعنى هذا أن التفاصيل التى

---

(١) لإيضاح ذلك أنظر كتاب السنة (الجزء الثانى من كتاب نحو فقه جديد ) من ص ١٩٤ إلى ص ١٩٧ .

تحدث عنها الرسول تتبع ما ظلت صالحة، وما أثبتت تلاؤمها مع الأوضاع، وهذا أمر يمكن أن يوجد فى جيل الرسول والأجيال القريبة التى جاءت بعد ذلك، ومن أجل هذا حرص أبو بكر وعمر وبقية الخلفاء الراشدين على اتباع ما أمر به الرسول.. ولكن عندما تمر مئات السنين، وتحدث أوضاع جديدة وتعقيد وتشابك لم يكن للمجتمع النبوى عهد به بحيث لا تتلاءم مع ما أمر به الرسول فيمكن التوقف فيها والعودة إلى القرآن لاستمداد أحكام تتفق مع روحه وإن اختلفت فى صورها أو تفاصيلها مع ما تضمنته الأحاديث .

ومن المهم توجيه الأنظار إلى أننا فيما ذهبنا إليه إنما نؤكد ما أراده القرآن وما أمر به الرسول وما يتفق مع السنن التى وضعها الله تعالى للمجتمع الإنسانى، **ومن المهم أيضا أن يعلم الناس أن الرسول لم يشأ أبدا لأحاديثه أن تأخذ صفة التأبيد التى فى القرآن ..**

**وفيما يلى بعض ما جاء عن الرسول فى ذلك :**

- عن أبى هريرة أنه قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث فقال ما هذا الذى تكتبون قلنا أحاديث سمعناها منك قال أكتابا غير كتاب الله تريدون ؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما كتبوا من الكتب مع كتاب الله قال أبو هريرة قلت نتحدث عنك يا رسول الله قال نعم تحدثوا عنى ولا حرج فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" .

- عن الحارث بن عبد الله الهمذانى صاحب على بن ابى طالب قال: "مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث فدخلت على على رضى الله عنه فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا فى الأحاديث ؟ قال أو قد فعلوها ؟ قلت نعم، قال أما أنى قد سمعت رسول الله ﷺ يقول "ألا أنها ستكون فتنه" قلت فما المخرج منها يا رسول الله قال "كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، **ومن**

**أبتغى الهدى فى غيره أضله الله**، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه الخ ...

- روى بن عبد البر فى كتابه جامع بيان العلم وفضله عن جابر بن عبد الله بن يسار قال سمعت عليا يقول "أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه فإنما هلك الناس حيث أتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب الله .

- وعن عامر الشعبى عن قرظة بن كعب قال "خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى (صرار) ثم قال أتدرون لم مشيت معكم قالوا نعم نحن أصحاب رسول الله مشيت معنا تريد أن تشيعنا وتكرمنا فقال إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله أمضوا وأنا شريككم فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر" .

- "عليكم بكتاب الله وسترجعون إلى قوم يحبون الحديث عنى، ومن قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار. فمن حفظ شيئا فليحدث به" (ابن الضريس عن عقبة بن عامر حم ك عن أبى موسى الغافقى) .

- وحديث "ألا إن رحى الإسلام دائرة. قيل فكيف نصنع يا رسول الله ؟ قال: اعرضوا حديثى على الكتاب، فما وافقه فهو منى وأنا قلته". (طب وسمويه عن ثوبان) .

- "سئلت اليهود عن موسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا (وزاد فى المنتخب: وسئلت النصارى عن عيسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا) وإنه ستفشو عنى أحاديث، فما أتاكم من حديثى فاقرؤوا كتاب الله واعتبروه. فما وافق كتاب الله فأنا قلته، وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله" (طب عن ابن عمر) .

- "ستكون عنى رواة يروون الحديث فاعرضوه على القرآن، فإن وافق القرآن فخذوه وإلا فدعوه" (ابن عساكر عن على) .

- إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه بعيد منكم فأنا أبعدكم منه (وفى المنتخب عنه) (حم ع أبى أسيد أو أبى حميد) .

- أطيعونى ما كنت بين أظهركم. وعليكم بكتاب الله أحلو حلاله وحرموا حرامه" (طب عن عوف بن مالك) .

- اعرضوا حديثى على كتاب الله فإن وافقه فهو منى وأنا قلته" (طب عن ثوبان) [١] .

فهذه الأحاديث المترادفة تعيد الأمر أساسا إلى القرآن، وتكل أحاديث الرسول إلى القرآن كمعيار لصدقها، وما كان للرسول أن يسلك غير هذا المسلك وهو الرسول المؤتمن على القرآن والمبلغ له، وآيات القرآن صادعة بأن لا يزيد ولا ينقص ولا يأت بشىء من عنده وأنه ليس له من الأمر شئ .

ولكن الفقهاء نهجوا نقيض ذلك، وفروا من القرآن وما يلزمهم من تمسك بقيم العدل والحرية والشجاعة والسماحة الخ ... مما كان العصر لا يسمح به إلى الأحاديث، ثم تخيروا من هذه الأحاديث ما يتفق مع أوضاعهم فأعملوها حتى لو كانت ضعيفة، وربما لأنها ضعيفة، لأن الحديث الضعيف قريب من الموضوع الذى يدين بظهوره إلى متطلبات العصر من طاعة للسلطان وتوجيه الجمهور للرضا والتسليم وتميز الأغنياء الخ ...

وسنعرض هنا لثلاثة أحاديث لا ترقى لمرتبة الصحيح المؤكد، ومع هذا فإنها هيمنت على المجتمع الإسلامى وعلى الفكر الإسلامى طوال ألف

---

(١) الأحاديث السبعة الأخيرة نقلا عن ورقة بعنوان "فتنة الانحراف" للكاتب الإسلامى الأستاذ إبراهيم بن على الوزير .

سنة تقريبا، ولا يزال بعضها رغم القوارع والمثلات - يحتل مكانا من نفوس بعض الناس ..

**الحديث الأول: الأئمة من قريش..** قضى هذا الحديث بأن تحصر الخلافة فى قريش وظل هذا مفهوما ومقررا لبضعة قرون، ولم يخطر لأحد من الذين أعملوا هذا الحديث أنه لو كان صحيحا لكان يجب أن يكون أول من يعلم به أبو بكر، الوزير الأول للرسول أو عمر الوزير الثانى أو أبو عبيدة أمين هذه الأمة، وقد حضر الثلاثة يوم السقيفة العصيب الذى كاد أن يشق وحدة المسلمين ولو كان هذا الحديث عند أحد من هؤلاء الثلاثة وأعلنه لقضى الأمر وحسم الخلاف ولكنه لم يكن معروفا، وأن يجهل هؤلاء الثلاثة وهم أدنى الناس إلى الرسول وأخصهم فيما يتعلق بإدارة الدولة، ثم يأتى بعد قرن أو أثنين علماء من أقاصى آسيا ليستخرجوا هذا الحديث أمر يضعه أمام خيارين. فإما أن هذا الحديث صحيح وجهله مع ذلك أقرب الناس إليه.. وإما أنه موضوع.. فإذا كان الأول فإن جهل أقرب الناس إليه يسقطه، ويثير شبهة قوية نحوه أو يجعله قابلا للتطبيق عندما كانت الشوكة فى قريش، وما كان يمكن أن يدوم هذا إلا لمدة محدودة .

ومثل هذا التحقيق كان من الممكن أن يتوصل إليه رجل متوسط الذكاء لأنه لا يتطلب نبوغا، ولكن المسلمين كانوا قد رفضوا استخدام العقل وآثروا اتباع النقل ..

والحديث بعد، يخالف مبادئ القرآن التى تقرر تداول السلطة ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ والتى تجعل الأمر لذى التقوى والعمل وليس وقفا على قبيلة أو أسرة وقد طلب نوح أن يشرك ذريته فأدبه الله تعالى ﴿ لا ينال عهدى الظالمون ﴾ كما يخالف المعهود من الرسول الذى لم يجعل لأحد من آله فضلا بحكم النسب يغنيه عن العمل "يا فاطمة أعملى فأنى لا أغنى عنك من الله شيئا" .

**الحديث الثانى: المرأة عورة..** مع أن الحديث ليس بالحديث الصحيح "وتفرد به الترمذى عن سائر أصحاب السنن ولم يصفه بالصحة بل أكتفى بوصفه بالحسن والغرابة وذلك لأن بعض رواته ليسوا فى الدرجة

العليا من القبول والتوثيق، بل لا يخلو من كلام فى حفظهم مثل عمرو بن عاصم وهمام بن يحيى[1]" فقد اتخذ قاعدة عامة، وأى عار يمكن أن يلحق أمة مثل أن يقال عن نصفها إنه عورة، ولم يستخدم القرآن هذا اللفظ النابى إلا فيما وضع له، وليس للمرأة التى جعلها الله قسيمة الرجل ولها ما عليه بالمعروف وقال الله تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾. ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾ . ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلوا الله من فضله إن الله كان بكل شئ عليما ﴾.

ولما زعموا أن المرأة عورة أوجبوا سترها، وأفترضوا أن يتم هذا من رأسها حتى قدمها، فإذا حكمت الضرورات بإظهار اليدين والوجه، فلا مناص ..

ولا شئ أدل على هيمنة روح العصر القديم وإتباع الأقوال من إعمال هذا الحديث الذى يخالف صريح القرآن ومبادئ الإسلام وروحه، ولا يرقى إلى مرتبة الصحيح ..

**الحديث الثالث: "من بدل دينه فاقتلوه"** وهو حديث آحاد مما لا يعمل بها فى العقائد، وهو من رواية عكرمة الذى استبعده مسلم، ومع ذلك فقد تمسك الفقهاء بهذا الحديث جميعا وبنوا عليه حد الردة. بعد أن أضافوا صياغتهم الخاصة "من جحد معلوما من الدين بالضرورة" وأصبح هذا الحديث عندما يفسر فى ضوء الإضافة الفقهية سيفا مسلطا على حرية الفكر

والحديث يخالف عشرات الآيات التى تنص صراحة على حرية الفكر والاعتقاد دون قيد أو شرط ﴿ فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر ﴾ ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾. ويتناقض مع طبائع الأشياء

---

(١) فضيلة الشيخ القرضاوى فى كتاب "النقاب للمرأة بين القول ببدعته والقول بوجوبه" مكتبة وهبه ص ٥٧ .

التى تجعل الاعتقاد أمراً شخصيا إراديا يقوم على اقتناع ورضا ولا يمكن أن يفرض بالقوة، ولا قيمة لفرضه بالقوة .

بل أغرب من هذا أنه يتناقض مع "السنة" أى عمل الرسول لأن من الثابت إن الرسول لم يقتل أحداً ممن ارتدوا على عهده، وكان عددهم يزيد على أصابع اليد، وأن الحالتين أو الثلاثة التى أجاز فيها الرسول قتل مرتد فلأنه فعل مع ردته ما يوجب القتل، وقد حررنا ذلك فى كتابنا " الإسلام وحرية الفكر[1] " .

فهذه أحاديث ثلاثة ركيكة، مخالفة لآيات القرآن، وعمل الرسول، ومبادئ المنطق والعقل ومع هذا أعملوها وكانت من أكبر أسباب تخلف المسلمين .

وهى تؤكد ما ذهبنا إليه من أن الفقهاء هربوا من القرآن إلى الأحاديث التى تتفق مع الأوضاع القائمة حتى لو كانت ضعيفة، ثم لما طبقت المذاهب تركوا الأحاديث إلى قول إمام المذاهب ثم أغلقوا باب الاجتهاد، وقضوا على الناس بالتقليد، أى بالعمل دون سؤال ودون معرفة حكمة وهو ما لحظه الشيخ محمد الغزالى عندما قال :

**هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث .**

**ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة .**

**ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين .**

**ثم هجروا المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخبطهم[2]**

**وغنى عن القول أن هذا المسلك من الفقهاء عطل إعمال القرآن، وشل روحه المبدعة وانطلاقاته الثورية والتحررية ..**

---

(١) الإسلام وحرية الفكر للمؤلف .

(٢) فقه السيرة الشيخ محمد الغزالى – دار الكتاب العربى – ص ٣٣ .

-٣-

# إقحام مضامين لاهوتية وصوفية

كان من أبرز خصائص الإسلام ابتعاده عن التعقيد اللاهوتى وإقامة قاعدته على أساس الفطرة، ولم تتطلب الصورة التى عرضها لله تعـــالى أو للرسول.. أو حتى لعالم الغيب لاهوتا معقدا، وحتى البعث بعد الموت أقامـه الإسلام على فكرة أن من خلق الإنسان من طين قـــادر علـــى بعثـه مـــن التراب.. وحتى عالم الغيب فإنه أقامه على أساس ميزان لا يظلـــم مثقـــال ذرة. فكان رمزا للعدالة، والعدالة عقلانية واستقامة. ولهذا كـــان الإيمـــان الإسلامى أيام الرسول إيمانا صافيا لا تعكره شكوك أو تشوبه شوائب ..

ولكن الشعوب التى دخلت الإسلام دون أن تتشرب قيم الإســـلام أو تألف القرآن ونسقه أو تتعرف على الرسول وتستضىء بهديه. لم يكن لديـها هذا التقبل السهل السائغ، ووقفت عند بعض الآيـــات المتشـــابهات، والتـــى أمرنا الرسول أن نؤمن بها لا أن نتعسف الوسائل لنعرف كنهها وكان لـــهم عن هذا مندوحة لو سلموا قلوبهم لله وللقرآن .

والقرآن نمط فريد فى الكتابة يقف بين الشعر والنثر، وهو يضـــرب أمثلة، ويثير أخيلة لتحقيق الأثر النفسى المطلوب وممـــا يثـــير الدهشـــة أن تتسبب آيات الصفات فيما أحدثته من انشقاق فكرى خطـــير. لأن أســلوب القرآن يقوم على الرمز والمجاز، ولأنه يستخدم التصويـــر الفنـــى، وهـــذا ينطبق على كل أو معظم الخطاب القرآنى، وقد تحدث القرآن أكثر من مـــرة عن اليد أو العين، أو الكلام بطريقة رمزية للغاية فقال: ﴿ إن هو إلا نذيـــر لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ {٤٦ سبأ}. وقال: ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن

بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ فهل يمكن القول إن للعذاب، أو القرآن، يدا لا تشبه أيدى الناس كما يقول الوهابيون ؟

وقد أنطق القرآن السماء والأرض والحيوان، وجعل الشمس والقمر يسجدان. لأن القرآن يريد أن يضرب من الأمثلة ما يصل إلى القلوب وما يؤثر فى الأفئدة. لأنه يريد الهداية ..

من الغفلة إذن أن نأخذ كلمات القرآن التى تتعلق بذات الله تعالى، أو الغيبيات المأخذ المادى الذى نألفه ونستخدمه فى حياتنا الدنيا.. فهذا قياس لا يستقيم، وقد فهم الصحابة ذلك ورضوه واطمأنوا إليه، ولكن هذه الأقوام حديثة العهد بالإسلام وقفت متحيرة ثم ظنت أنها وجدت المخرج فى أن تقول إن لله تعالى يدا ليست كيد البشر وعينا ليست كعين البشر، والاستواء معلوم والكيف مجهول، وأيدوا هذه الدعاوى ببعض الأحاديث التى لا يخالجنا شك فى أنها موضوعة.. وهذا كله خلط لا يجوز وهو يوقعهم على مشارف التجسيم وهو أسوأ صور الوثنية ..

فى مقابل هؤلاء أراد المعتزلة "تنزيه" الله عن الكلام لما فى ذلك من شبهة تجسيم فقادهم ذلك إلى متاهات أوقعتهم فى تناقضات، وأبعدتهم عن السلامة، وكانوا فى غنى عن هذا كله لو قالوا ليس من شأننا أن نبحث فى هذا لأنه يتعلق بذات الله، وكل ما يتعلق بذات الله هو مما لا تدركه الأفهام والعقول فبحثنا فيه ضلال، وأننا نستدل على وجود الله وكماله وقدرته بما جاء فى القرآن ونعمل بما أمر به الرسول من التفكير فيما خلقه الله، وليس ذاته أو صفاته ..

ولكن المعتزلة الذين كانوا محملين برواسب حضارية معقدة أرادوا غير ذلك، وأدى بهم نفى صفات الله الأزلية إلى القول بأن الله ليس له علم ولا قدرة ولا حياة، ولا سمع ولا بصر ولا صفة أزلية، وأن الله لم يكن له فى الأزل إسم ولا صفة ..

وأن الله غير خالق لإكساب الناس ولا لشىء من أعمال الحيوانات، وأن الناس هم الذين يقدرون على إكسابهم .

ووضعوا الفاسق بالمنزلة بين المنزلتين، فلا هو مؤمن ولا هو كافر .

وأوجبوا على الله إثابة المحسن ومجازاة المسيء وإلا لم يكن عادلا

وتساءلوا عن مكان الله تعالى وهل هو فى أى مكان أو فى كل مكان أو فى غير مكان .

وقال "النظام" من شيوخهم - إن الله تعالى لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم ولا يقدر أن ينقص من نعم أهل الجنة ذرة لأن نعيمهم صلاح لهم والنقصان مما فيه الصلاح ظلم، ولا يقدر أن يزيد في عذاب أهل النار ذرة ولا ينقص من عذابهم شيئا ولا أن يخرج أحدا من أهل الجنة عنها، ولا يقدر أن يلقى فى النار من ليس من أهل النار (١) .

وذهب أبو الهزيل العلاف إلى فناء مقدورات الله عز وجل حتى لا يكون بعد فناء مقدوراته قادرا على شئ ولأجل هذا زعم أن نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار يفنيان ويبقى حينئذ أهل الجنة وأهل النار خامدين لا يقدرون على شئ، ولا يقدر الله عز وجل فى تلك الحال على إحياء ميت أو إماتة حى ولا على تحريك ساكن ولا عن تسكين متحرك ولا على إحداث شئ (٢) .

وذهب إمام الحرمين إلى أن الله تعالى يعرف الكليات دون الجزئيات، وأن من المستحيل عليه تعالى أن يعلم ما لا يعلمه.. وخاض آخرون فى مجالات فلسفية كالجوهر والعرض والجزء الذى لا يتجزأ، والطفرة، والحركة والسكون، وهى مجالات فلسفية ، ولكنهم دخلوها من مدخل الدين فأساءوا إلى الدين وأساءوا إلى الفلسفة ..

وانتهت هذه التخرصات والانحرافات الفكرية إلى وقوع فتنة "خلق القرآن" التى استغلت سياسيا وأدت ليس فحسب إلى انشقاقات فكرية، ولكن إلى سياسات حكومية إرهابية تدعى الدفاع عن العقيدة .

---

(١) الفرق بين الفرق - لعبد القاهر الاسفراينى - ص ١٤٩ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ .

إن الأثر المدمر لظهور هذه الانحرافات المذهبية لم يقتصر على شق وحدة الأمة، وحدوث فتن وصراعات ما بين صفوفها على أسس مذهبية، ولكن هذا التطور بأسره نقل مسرح العمليات ومعسكر المعركة من الثورية التى أرادها الإسلام إلى اللاهوتيات التى لا تمس فى قليل أو كثير قضايا المجتمع، وواقع الناس، ومشاكلهم وأوضاعهم الاقتصادية والسياسية، وليس أدل على بعدها من أن المعتزلة التى جعلت شعارها العدل وبذلت كل سفسطتها فى إلزام الله به لم تحاول أن تلزم به المأمون الذى ذهب مذهبها، والذى ترجمت فى عهده كتب أرسطو وأفلاطون دون أن يستفاد منها فى مجال تنظيم الدولة ...

والغريب أن من أصولهم الخمسة - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - فأين هذا الأصل وقد كان استبداد الخلفاء فاشيا واستغلال الجماهير شائعاً بل يا ليتهم فى تحرى العدل والتنزيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عملوا على إصلاح الفقه الإسلامى، وإيجاد نمط جديد من "أصول الفقه" غير التى وضعها الشافعى وأبو حنيفة .

ولما لم يتجه التطور العملى للمعالجات السياسية للمجتمع، أو تبذل الجهود لإصلاح أوضاعه كما أراد القرآن، فإن يأس الجماهير من الشيوخ والفقهاء الرسميين الذين تجمد فقههم بتأثير المنطق الأرسطى الشكلى، وشكهم فيهم لعلاقتهم بالسلاطين والحكام، ثم اشمئزازهم من شنشنات المعتزلة أو الأشعرية وبقية "المتكلمين" بالإضافة إلى يأسهم من إصلاح السلاطين أو كبح جماح استبدادهم واستغلالهم.. كل هذا أدى بهم لأن يلوذوا "بالتصوف" .

والتصوف بهذا التصور ظاهرة طبيعية كان لابد أن تظهر كرد فعل للانحرافات التى حفل بها المجتمع الإسلامى، ولم يكن السبب الذى أدى إلى ظهوره تطبيق مبادئ إسلامية أو إحياء سيرة السلف الصالح فمبادئ الإسلام وسيرة الصحابة كانت تقوم على الدين والدنيا، وقد نهى الرسول عن الإيغال فى العبادة ووجه الذين يأخذون أنفسهم بمجاهدات دائبة للقصد. "إن لجسدك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا"، وعندما امتدحوا

من كان يصوم النهار ويقوم الليل سألهم الرسول عمن يُعدُ له حاجاته من مأوى وطعام وشراب فقالوا "كلنا" فقال "كلكم خير منه" وهذا هو ما يتفق مع طبيعة القرآن فى شموله للدين والدنيا وفى اتسامه بالقصد والاعتدال فى كل شئ .

لهذا لا يتفق فكر التصوف مع مبدأ الشمول والقصد الإسلاميين، ولكن ظهور التصوف كان ضربة لازب ولم يكن بالطبع بعيداً عن بعض التوجيهات الإسلامية وكان هو الملاذ الوحيد للجماهير إزاء التطور الذى فرض نفسه على المجتمع وقتئذ .

وتصور لنا الأزمة الفكرية لأبى حامد الغزالى التى انتهت به إلى التصوف عمق وقوة هذه العوامل، وأنها إذا استطاعت أن تجذب فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة ومؤلف "المستصفى" فإنها بالطبع أقدر على جذب غيره من عامة الناس، ووصف الغزالى نفسه لهذه الأزمة، والصراع المرير الذى دار فى فكره ما بين الاتجاه "الدنيوى" الذى كان يدفع به إلى التدريس فى المدرسة النظامية والاتصال بالوزير نظام الملك وبين وجدانه الذى كان ينأى به عن ذلك حتى "إعتقل لسانه" بحيث لم يستطع أن يلفظ بكلمة، وكان هذا تعبيراً "سيكولوجيا" له تفسيره "الفرويدى" الذى لا يتناقض بالضرورة مع فكر الإسلام .

وُقضِى على هذا العالم النحرير الذى أحكم الفقه والمنطق والفلسفة أن يبدأ من نقطة الصفر، فكل ما حصله وأحكمه ودرسه لا يساوى شيئاً أمام هذا العالم الجديد، عالم الذوق والسلوك و "تطهير القلب كله عما سوى الله بقطعه عن كل العلائق التى تربطه بالدنيا من مال وأهل وولد ووطن وعلم وولاية وجاه وغيرها مع انشغاله بذلك بحيث يصير قلبه فى حالة يستوى فيها وجود كل شئ وعدمه" .

وهذه الأزمة تعطينا فكرة عن حدة الصراع ما بين الاتجاه الفقهى والاتجاه الصوفى. وانتصار التصوف فى النهاية يجعل المأساة تصل إلى قمتها، لأنه لم يكن حلاً وقتياً لأزمته الفكرية، ولكن كان نهاية المسيرة لهذا المفكر والاختيار الأخير له .

ولكن هذا الحل الذى إنتهى إليه الغزالى وسعد به لم يكن هو الحل الطبيعى فى حقيقة الأمر. ذلك لأن ظهور التصوف كان - كما ذكرنا - رد فعل لعقلانية المعتزلة وجفاف الفقهاء واستبداد الحكام، فكان إلى حد ما دعوة لاعتزال الدنيا واجتناب غمراتها، وإقامة الاعتقاد على القلب، ولما كانت طبيعة الأشياء تُحَّمل رد الفعل شيئاً من الفعل أى الانحرافات الدنيوية، والمنطقية، والعقلانية، التى ثار عليها التصوف، فقد أخذ هو طبيعة أخروية، وجدانية عاطفية، وهو ما سمح بالانحراف الذى أنتهى إليه، وحوله إلى مؤسسة قطب الرحى فيها هو الشيخ الذى تربطه بالمريد علاقة تمحى شخصية المريد تماماً، وتجعله "كالميت فى يد المغسل" وتحظر عليه أى شك فى شيخه حتى لو شاهد منه ما يخالف ظاهر الشرع وبهذا تكون العلاقة ما بين المريد والشيخ أوثق من علاقة الجندى بالضابط، فالجندى وإن كان عليه أن يطيع الأوامر دون مناقشة، فإن له الحق فى "التظلم" وهو حق لا يتصور فى العلاقة ما بين المريد والشيخ فقد كان على المريد أن يستسلم قلبا وقالباً للشيخ، وإلا خاب وخسر ..

ولتلطيف هذه العلاقة ولإمكان قبولها نسجت الأحاديث والأقاويل والروايات عن الكرامات وعن عالم الأقطاب والأوتاد.. وألصقت "الخرقة" بعلى بن أبى طالب بحيث يجد المريد نفسه وهو يعيش فى عالم أسطورى يكتسب قوته ووجوده مما ألصق بالعقيدة .

كما نظمت "الحضرة" وحلقات الذكر وتطرق إليها عنصر فنى وسمح بهامش من الموسيقى والرقص. كما سمحت الموالد بدرجة من الاختلاط بين الرجال والنساء وشهود صور من الألعاب والفنون والسير فى مواكب تغطيها الأعلام العديدة وتلهبها الأناشيد حماسة وعاطفة .

وحتى لا نتهم بالتحامل على التصوف، فإننا نعرض رؤية واحدة من أفضل الطرق الصوفية ورائدها رجل مخلص تقى هو الشيخ زكى إبراهيم رائد العشيرة المحمدية نقلاً عن مجلة " المسلم "عدد جمادى الآخر ١٣٩٠ من ص ١٠ إلى ص ١٢ ..

## مراتب أهل الغيب :

وتكملة للفائدة نذكر أن للصوفية - بحسب مراتب الأذواق والكشوف والمقامات مؤيداً بمفاهيم الآيات والآثار - أقوال شتى فى مراتب السادة {أهل الباطن} المعروفون عندهم باسم {أهل الغيب} أو {أهل الديوان} - وتتلخص هذه الصورة تقريبا فى الآتى :

١. الغوث الأعظم، والفرد الجامع، الذى هو على قدم النبى ﷺ ومجاله الروحى حول العرش .

٢. ثم الإمامان، وهما وزيرا القطب عن يمينه وشماله، ومجالهما الروحى طرفى الفرش {الفرش بالفاء: ما دون العرش بالعين} !

٣. ثم الأوتاد، وهم الأقطاب الأربعة الكبار، ومجالهم الروحى الجهات الكونية الأربع .

٤. ثم الإبدال السبعة، ومجالهم الروحى: السبع الطباق .

٥. ثم النقباء الأثنى عشر: ومجالهم الروحى: البروج السماوية الاثنى عشر .

٦. ثم النجباء السبعون: وهم أهل الخلوة والميقات، ومجالهم الروحى: الأفلاك والمجرات .

٧. ثم الأخيار، وهم الحواريون وأهل المعارج، وعددهم بين الثلاثين والثلاثمائة ومجالهم الروحى: أقطار الأفق الأعلى، وأصحاب هذه المقامات السبعة هم الأقطاب .

٨. ثم المفردون: وهم الأولياء المختارون من صالحى الأمة، ولا عدد يحصرهم ومجالهم الروحى الأفق الأدنى، وأقطار المدن والقرى .

٩. ثم الصالحون، وهم أتقياء الأمة، وهم درجات شتى، ومجالاتهم الروحية متعددة .

ثم أن لكل صاحب مقام من هذه المقامات خلفاء وعرفاء، فإذا خـلا المقام انتقل إليه الخليفة، ثم ارتفع العريف إلى رتبة الخليفة، واختـير مـن المستوى الثانى من خير أهل القرآن، وهكذا ...

وقد تختلف هذه الصور عند بعض السادة فى المتسميات والأعـداد وترتيب المستويات ولكنه صحيح فى ذاته معلل بدليله (كما قدمنـا) وهـو راجع إلى اختلاف نسب المقامات وإفاضات الكشوف لكن ما ذكرناه هنا هو الأوثق عندنا والله أعلم .

وعندنا أيضاً أن كل مستوى من هذه المستويات محفـوف بـأرواح كل من سبق أن شغله من أهل الله السابقين وعلى هذا فـإن شـاغله مـن الأحياء يعتبر ممثلاً للأرواح التى سبقته إلى هذا المقام، فهى تحوطه، ومنها يستمد الكثير من السر والإفاضة .

وكما أرجعنا أقدام الأقطاب الأربعة الكبار إلى نظـام أهـل المـلأ الأعلى باعتباره مرجع النظام الكونى كله والتناسب الرابط بينه وبين العـالم الأرضى حقيقة مسلمة... فكذلك مقام الإمامين: أحدهما مستغرق فى مقـام "الجمال" على قدم "رضوان الجنة" والثانى مستغرق فى "الجلال" على قـدم "مالك النار" ومن هنا صح مقام "الكمال" للغوث الأعظم، جامعا فيـه بيـن الجمال والجلال .

ثم نجد مقام الإمامين عند أهل الكشف مثلاً، هو مقاما: آدم وإدريس ثم إلياس والخضر، ومن شاء الله من أهل النبوات، ثم من على أقدامهم مـن الربانيين مشهورين أو مستورين: ابن المسيب وابـن جبـير، والصاحبـان الفقيهان: أبو يوسف ومحمد بن الحسن، والشـيخان المحدثـان: البخـارى ومسلم وهكذا ...

## أهل الديـوان :

ويجتمع "أهل الديوان" وهم كبار أصحاب الوظائف الغيبية، أرواحـا وهيولى، فى المعاهد الثلاثة المقدسة: الحرم المكى، والحرم النبوى، وبيـت المقدس، ثم فى أماكن مقدسة أخرى يكشف عنها لأهل القلوب، على توقيـت وترتيب دقيق، فليس فى الغيب فوضـى، ولا تجمـد وعـدم ولا انفصـال مطلق! .

وفى مقابل المجالات الروحية العليا لأهل الله مجـــالات أرضيـــة، فمجال الغوث مع العرش "الكعبة المكرمة" ومجال الإمام الجمالى مع أحـــد طرفى الفرش "الروضة المطهرة" ومقام الإمام الجلالى مـــع أحـــد طرفـــى الفرش "بيت المقدس"، وكذلك شأن كل رجال الله، لكل منهم مجال ســـماوى وآخر أرضى .

وفى عالم الجن المسلمين يمضى نظام المراتب الروحية لأهلها مـــن صالحيهم على نظام مراتب الأنس تماما، ففى كل مقام أهلـــه مـــن الجـــن والأنس على حد سواء .

أما تعاونهم وتعاطفهم مع صالحى الأنس، فأمر غير مختلف عليه .

أما بعد: فعندما يجلس أحدهم "أى أحدهم هنا وهناك" شبعان متكـــأ على أريكته، يتمطى ويتجشأ مرة، ويتثاءب مـــرة، ويســـتقطب ويشـــمأنط أخرى ثم يزعم لنفسه ولأمثاله أن الصوفيين بهذه الأقـــوال اســـتحمقوا، أو اخطأوا أو فرقوا فليمسك جهله هذا على نفسه وحدها، فليـــس جهلـــه هـــو وأمثاله بشىء ما دليلا على عدم وجود هذا الشىء أو عدم صحـــة إخبـــار أهله به، والتسليم بالواقع أو إنكاره لا يغير شيئاً من الحقيقة اليقينيـــة عنـــد أهلها، والذى لا يعرف حقيقة كنه حياته ولا نفسه ولا روحه ولا عقلـــه ولا فكره ولا نومه، أولى به أن يسلم لمن يعرف، فـــإن لـــم يســـلم فمقتضـــى الأنصاف أن يتوقف .

ونحن لا نجبر أحداً أبدا على الإيمان بهذا كله أو بعضه، ولكننـــا لا نسمح أبداً بتكذيبنا فيه بغير برهان على الإطلاق إلا أن يكـــون هرطقـــة أو شقشقة أو هنبقة !! أو فيهقة باسم الدين المظلوم !! . إنتهى

وحتى لا نظلم التصوف فيجب أن نعترف أنه بجانب هذه الســـوءات فقد كانت له حسنات فى نشر الإسلام فى آفاق جديدة، وفى تنظيم الجمـــاهير وفى مقاومة التكالب على المادة والدنيوية المغرقة، وأنه أبـــرز شـــخصيات مثل ابن عربى وابن القارض اللذين تقبلا كل الأديان ورفعـــا لـــواء "ديـــن الحب" ..

أدين بدين الحب أنا توجهت

ركائبه فالحب دينى وإيمانى

## الفصل الرابع

# تثوير القرآن
# لماذا .. وكيف

---

## ١ - لماذا؟؟

بدأنا هنا الدفتر من دفاتر الإحياء بكلمة عن الثورة، وما هى المقومات التى تجعلها "ثورة" فعلاً وليست هبة، أو انقلابا ألا وهى وجود نظرية متكاملة وإرادة تغيير شامل ومشاركة الجماهير فى تطبيقها، وأشرنا إلى ضرورة الثورة عندما تتراكم الأخطاء وتتعقد المشاكل وتزداد شقة التخلف والتأخر بحيث لا تصلح طرق العلاج التقليدية التدريجية لا فى علاج المشاكل، ولا فى استدراك التخلف ما بين واقع الأمة، وواقع العالم، وقلنا إن العزوف عن الثورة الذى يعود إلى ما يصطحب بها من جرائم ومجاوزة للشرعية هو ما لا يوجد فى الثورة الإسلامية لأنها ثورة الكلمة والإيمان وليست ثورة السيف والسلطان ودللنا على ذلك بأن أعظم فتح فى الإسلام - فتح المدينة تم بالقرآن وهذا الفتح للمدينة بالقرآن هو الذى أدى إلى فتح مكة بالجيش، ومع هذا فلم يحدث أن فتحت عاصمة مقدسة بجيش ثم يقل عدد ضحايا هذا الفتح عن عدد أصابع اليدين ولا تستباح لقتال إلا ساعة من نهار.. ثم تعود بعدها محرمة مقدسة ..

وأوضحنا أن الأديان فى حقيقتها هى الثورات الجماهيرية الحقيقية فى تاريخ البشرية، وإذا كانت المراجع الأوربية لا تذكرها، فذلك لأن أوربا

لم تكن أرض الأديان، ولم يظهر فيها أحد الأنبياء من أولى العزم، فضلاً عن أن الوثنية الأوربية التى هى فى أصل حضارتها تجعلها تعزف عن الأديان، ولكن الشرق كان أرض النبوات ومهد الأديان ومن الأخطاء الفاحشة التى يقع فيها المفكر العربى والمسلم أن يجهل أو يتجاهل الحقائق الرئيسية فى تاريخه أو أن ينساق وراء التكييف الأوربى للتاريخ، وطرق نهضات الشعوب ..

فإذا كانت الأديان ثورات، فإن هذا يظهر فى أكمل صورة فى الإسلام الذى حول المجتمع الجاهلى بعصبيته وثأره وخمره وميسره وغاراته إلى مجتمع إيمانى يؤمن بالله والقيم النبيلة المنبثقة من ذاته، ويقتدى بالرسول وتسوده الأخوة والمساواة والحب والسلام ثم ينطلق كإعصار يحمل إلى النظم الطبقية الكسروية والقيصرية رسالة "الكتاب والميزان" .

وقلنا أيضاً أن أكبر عنصر فى هذه الثورة هو القرآن. ليس فحسب لما ينفرد به من مزايا وخصائص، ولكن لأنه أيضاً يمثل النظرية الشاملة اللازمة للثورة الرشيدة ..

وشرحنا خلال ما سبق من الفصول كيف عدت العوادى على فهم القرآن، وكيف أفرغت توجيهاته من الثورية، وكيف استطاع التفسير أن يغرق ويميع الروح الثورية، الانتهاضية، الإبداعية للقرآن فى خضم تفاصيل وشروح وأقاويل ونقول وادعاءات، وكيف تسلح بأحاديث موضوعة، وأبيات شعر منحولة، ونقول من التوراة، وكيف أقحم على الفكر الإسلامى قضاياً جدلية لاهوتية تأباها طبيعة الإسلام التى تقوم على الفطرة البسيطة الخالصة، وكيف أن هذه المجادلات اللاهوتية أفسدت عقيدة الألوهية التى جلاها القرآن وأن جفاف الفقه وخضوعه للمنطق الصورى وابتعاده عن مشاكل الناس والحياة، وأخيراً استبداد الحكام.. هذا كله جعل الجماهير تهرب إلى التصوف وتجعله ملاذاً من كل الانحرافات السابقة، ولكن التصوف بعد أن كان ملاذاً للجماهير تحول إلى مؤسسة تقوم على طاعة المريد. طاعة تمحى شخصيته تماماً، ودعم الأساس الفكرى له بافتراض وجود عالم أسطورى من الأبدال والأقطاب ذوى الكرامات

الخارقة، وبهذا أنحرف التصوف كما أنحرف علمـــاء الكــلام، والفقــهاء، والسلاطين من قبل .

**وفكرة هذا الفصل تقوم على أن إنقاذ المجتمع المصرى، والعربــى لم يعد ممكنا إلا بأسلوب ثورى بعد أن تعقدت وتشابكت عوامــل التخبــط والانقلابات العسكرية والنظريات السياسية التى لا قوام لها وإنمـــا هــى أقرب إلى الشعارات، وأعتقد أن أى مفكر يلقى نظرة على حــاضر العــالم العربى يوافق على ذلك، إذا كان أميناً محايداً .**

وفى جريدة العربى الصادرة يــوم ٢٧ أغســطس ٢٠٠٠ تحــدث الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل فقال :

- هويتنا ضائعة والشرعية ملتبسة ودستور ٧١ لم يعد يصلح .
- أنا قلق وغير مطمئن على أولادى وأحفادى وعلى الوطــن إلا إذا حدثت معجزة .
- **المستقبل خطر ما لم نحسم أزمة الهوية والشرعية والمرجعية .**
- **آخر شرعية فى مصر كانت لثورة يوليو والتخلــى عنــها يفقــد النظام شرعيته .**

صدق الأستاذ هيكل فى توصيفه للواقع المزرى المخيف الذى يثــير القلق العميق حول المستقبل المصرى ..

ولكن يبدو أنه لا يزال يعيش فى عالم "بصراحـــة" عندمــا كــانت مهمته هى تبرير سياسة العهد بما أوتى من لباقة وذكاء ودهاء.. فقـــال أن "ثورة يوليو" هى الشرعية الأخيرة ..

نقول له استيقظ يا أستاذ ... لقد انتهت الرواية وســقطت الأقنعــة، وبرح الخفاء وتبين الشعب أن ما حدث فى ظلام ليل ٢٣ يوليو لـــم يكــن ثورة، بل انقلاباً، أو مؤامرة، ولم يكن لها شرعية، بل كان دأبـــها تحطيــم الشرعية وإلغاء الدستور وكبت الحريات وحل الأحزاب واستلحاق النقابــات

والانفراد بالحكم وإبداع انتخابات ٩٩،٩% !! وقهر الشعب، وانتهاك كرامته بفتح باب الاعتقالات والتعذيب الخسيس الذى لم ينج منه أعضاء أى حزب أو هيئة وإهدار موارد مصر على المغامرات والمقامرات السياسية التى أدت إلى هزائم، وإضرام العداوة بين الدول العربية، وقد أساءت التطبيق فيما أرادت الإحسان فيه كإباحة التعليم أو تأميم الشركات وختمت كوارثها بهزيمة ٦٧ المخزية التى أخرت مصر مائة سنة إلى الوراء، ولم نستطع حتى الآن أن نتحرر من أوزار وجرائم وموبقات الناصرية .

**وهذه الوكسة الثقيلة، والمسيرة الضالة، والكابوس البغيض هو ما يريدنا الكاتب الكبير العودة إليه ..**

## كلام ليس له مكان إلا "صفيحة الزبالة" ...

* * *

إذا كان لابد من نقلة ثورية.. فأين نجد الشرعية والهوية، والأيدلوجية ..

**ليس إلا فى الإسلام ...**

وهو أمر لا يعود إلى الإسلام نفسه فحسب، ولكن إلى مصر أولاً:

مصر دولة "إيمانية" قامت حضارتها منذ أعرق العصور على الإيمان.. وبفضل الإيمان أقامت الأهرام والكرنك.. فى العصر القديم، وغرست بذرة السماحة والدماثة فى النفس المصرية، والبعد عن الغلو والشدة والعنف حتى أصبحت خلقاً قوميا مطبوعاً وأصيلاً ..

وفى الحقبة القبطية القصيرة، كانت الكنيسة هى التى حمت الشخصية المصرية من عدوان البيزنطيين ومثلت مقاومة مصر، وأنجبت قطبى المسيحية أريوس ، وأثناسيوس .

وتحت رايات الإسلام حازت انتصارات المنصورة وحطين، وعين جالوت فأوقفت مد الصليبية، ومد المغول الذى خرب بغداد وقضى على الخلافة العباسية، وكان يمكن لولا صد مصر له أن يدمر بقية الشرق .

وفى جميع هذه العهود كان الدين (سواء كان الديانة المصرية القديمة، أو المسيحية أو الإسلام) هو أصل التشريع، وجذر الضمير، ومحور التاريخ .

وعندما تلاقت مصر والإسلام – أو قل تعانقت مع الإسلام – فإن هذا كان تكليلاً لمسيرة طويلة بدأت منذ أن تزوج إسماعيل هاجر المصرية ومن سلالته ظهر رسول الإسلام ...

وتجلت عندما دخل عمرو بن العاص مصر، محرراً لها من الاحتلال البيزنطى، فوجد التأييد من أقباط مصر، ومن ناحيته، فإنه بمجرد انتصاره أعاد البطريرك بنيامين الذى كان مختبئاً من ملاحقة البيزنطيين إلى مركزه، وأعطى الكنيسة التى كانت محرمة فى العهد البيزنطى – الشرعية والحرية .

ويلحظ أن المسيحية عندما دخلت مصر أول مرة تورطت فى صراع مرير مع الديانة المصرية القديمة خاصة كهنة إيزيس التى ظل المصريون يؤمنون بها حتى القرن الخامس الميلادى عندما اضطروا إلى الفرار إلى الصعيد حتى تمكن أسقف أسوان تيودوس فى حكم الإمبراطور يوستنيانوس (٥٢٧–٥٦٥م) من تنكيس الصنم وتحويل المعبد إلى كنيسة [١] فلم تكن المسيحية بالراسخة عندما جاء عمرو بن العاص إلى هذه البلاد سنة ٦٤٠ أى بعد مائة سنة فحسب من سقوط آخر قلاع الوثنية .

ولكن شيئاً من هذا الصراع لم يحدث بين المسلمين وبين القبط، على العكس كان الود والتفاهم سائداً، وكانت سماحة الإسلام من البواعث التى جعلت الكثير منهم يؤمن بالإسلام، **وكان هناك رباط آخر بين الإسلام، وبين الدين المصرى القديم هو إبراز دور الدار الآخرة وتأكيد وجودها وهناك شبه عجيب بين ما جاء فى بعض النصوص الإسلامية عن الجنة** والنار وعن الحساب وعن الميزان الذى يزن بمثقال ذرة بما جاء فى الديانة المصرية عن الميزان الذى يزن بريشة طائر، وهذا التقارب الذى خاطب اللاشعور التاريخى فى البقية الباقية من سلالة المؤمنين بالدين القديم الذين

---

(١) أنظر سندباد مصرى تأليف الأستاذ حسين فوزى ص ٢٦٦

دخلوا المسيحية سهل عليهم بعد ذلك دخولهم الإسلام، وتكوينهم كتلة المسلمين، إذ أن العرب الذين دخلوا البلاد مع عمرو بن العاص، أو هاجروا إليها ما كانوا ليصلون إلى الملايين، وإنما وصلوا إليها بفضل إيمان الكثير من القبط بالإسلام بحيث أصبح سكان مصر ما قاله شوقى عنهم :

ألستم بنى القوم الذين تجبروا
على الضربات السبع فى الأمد الخالى
رددتم إلى فرعون جداً وربما
رجعتم لعم فى القبائل أو خال

وعندما آمنت مصر بالإسلام، فإن الإسلام صبغ حياتها بصبغته، بل إنه صبغ الأقباط والمستوطنين من الأجانب، لأن الإسلام دين قوى ومظاهره تغطى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأدت توجيهاته إلى تماسك المجتمع والحيلولة دون أن يتهاوى مع ترادف الغزو الخارجى على مصر فى القسم الأخير من تاريخها وأوجد "الخلق الإسلامى" بدءاً من الرسول حتى السلف الصالح المثل فى التعامل، كما أن فرض الزكاة وتنديد القرآن بالبخل أدى إلى قيام قدر من "التضامن الاجتماعى والاقتصادى" وقدمت الأوقاف التمويل اللازم للمدارس والمستشفيات وأعمال البر التى جاوزت الإنسان فشملت الحيوان وحمت الشريعة اقتصاد البلاد من غزو المرابين وهيمنة الأجانب. فلم يعرف هذا أو ذاك إلا بعد الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ وفى حمايته، وتعود الأعراف والعادات كلها أو معظمها إلى مؤثرات إسلامية، بدرجات متفاوتة .

**فهذا الجذر الدينى الضارب فى أعماق المجتمع المصرى مما لا يجوز أن يُغفل أو يهمل، والحقيقة أن تجاهله من النخبة المتأوربة، أو العصبة الحاكمة كان فى أصل انصراف الجماهير عنهم، وعنها، وعدم وجود تجاوب وجدانى إزاءهم .**

على أن دور – الإسلام السياسى – كما يحب البعض أن يقول فى تاريخ مصر الحديثة لا يدع شكاً فى أنه قد قام بالدور الحاسم، وأنه مثل شعب مصر فى تلك الفترة الحرجة التى بدأت بالحملة الفرنسية سنة ١٨٩٨

حتى تولية محمد على شئون الحكم سنة ١٨٠٥ فليس "الإسلام السياسى" ظاهرة محدثة، ولا هى من فعل الجماعات الإسلامية المعاصرة أو إحياء الجهاد، إنه كان التعبير الأمثل لشعب مصر فى فترة تعد من أهم فترات حياتها .

فما أن انتصر نابليون على المماليك الذين فروا بجلودهم، وتركوا القاهرة مدينة مفتوحة حتى ظهر لأول مرة قادة طبيعيون من صميم الشعب لا يعتمدون على سلاح أو جنس أو أرستقراطية أو ثروة، وإنما كان رأس مالهم الضخم أنهم الشيوخ وبالذات شيوخ الأزهر، وهو المعهد الذى ظل يعلم الإسلام، واللغة قرابة ألف عام. ظهر الشيوخ كقادة الشعب بعد أن فر المماليك وكان عليهم أن يتعاملوا مع المنتصر الذى جاء بالمدافع والبنادق وأن يدرؤوا شره ما أمكن حتى تتهيأ للشعب وسائل وطرق المقاومة وهذا ما قاموا به خير قيام وقادوا الشعب فى الثورة على نابليون، ثم الثورة على كليبر حتى فشلت الحملة، وعادت إلى فرنسا ..

وأراد الأتراك أن يعيدوا مصر إلى ما كانت عليه كما بدأ المماليك الذين فروا من مدافع نابليون فى العودة، ولكن الشيوخ الذين يعبرون عن إرادة الشعب كان لهم رأى آخر. كانوا يريدون التحرر من الترك والمماليك معا. ووقع اختيارهم على أحد القواد النابهين ليقوم بهذه المهمة هو محمد على الذى كان قد تقرب إليهم فاتفقوا على أن يمكنوه من الحكم، على أن يحكم بالشرع والعدل وإن لم يفعل عزلوه. وعلى هذا الأساس أعلنوا الحرب على الوالى التركى "خورشيد باشا" الذى أوفده "الخليفة العثمانى" وحاصروه فى القلعة حتى أضطر إلى التسليم. ومن يد الشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم تسلم محمد على خلعة الولاية سنة ١٨٠٥ .

**تلك كانت "الماجنا كارتا" [١] المصرية التى يولى فيها الشعب وقادته الطبيعيون الحاكم بصورة مباشرة، ويحددون وسيلة الحكم وهى الشرع والعدل ويهددونه بالعزل إن لم يفعل ويرحلون آخر والى تركى يأتى من الأستانة ..**

---

(١) العهد الأعظم الذى مكن نبلاء بريطانيا من أن يكون لهم مشاركة مع الملك جون الثانى فى الحكم عام ١٢١٥ .

**لم تتكرر هذه السابقة فى تاريخ مصر الحديث فلم يحدث مثل هذا التجاوب ما بين الشعب والشيوخ نتيجة لأن هؤلاء الشيوخ كانوا قاده طبيعيين تماماً له. ولم يحدث أن تسلم الحاكم خلعة الولاية من قادة الشعب بصورة مباشرة ولم يحدث أن يتعهد بالحكم طبقاً للشروط التى قدموها له (١) .**

وأسفاه أن هذه التجربة الفذة لم تسر إلى النهاية المنشودة. إن محمد على الذى تقرب للشعب والشيوخ كان يطوى بين جنبيه نفساً طموحة إلى أبعد مدى، كما كان يتمتع بقدرات ومواهب قلما تتوفر إلا فى "بناة الإمبراطوريات" ولكنه للأسف الشديد لم يقم إمبراطوريته عمليا على الشعب، وأيدلوجيا على الإسلام فانقطعت العلاقة بينه وبين الشعب، هذا الانقطاع الذى ظل بحكم العلاقة ما بين الشعب وحكام أسرة محمد على حتى خلع فاروق ..

* * *

لم يكن بد من هذا الاستطراد الذى ضغطناه ضغطاً شديداً حتى لا يذهب التفصيل بالفكرة العامة التى نريد إبرازها. تلك الفكرة هى .

**أولا: أن مصر، ومعظم الدول العربية قد وصلت من الإفلاس والتخبط والتخلف درجة لم يعد الإصلاح ممكنا إلا بأسلوب ثورى ..**

**ثانياً: أن أهم مقوم للثورة لكى تكون ثورة حقاً وليس انقلاباً هو النظرية التى يتجاوب معها الشعب، ويعمل بصفة مباشرة فى تطبيقها ..**

---

(٢) إن أثر الإسلام فى المجال السياسى لم ينته، فإن النهضة الفكرية فى النصف الأخير من عهد إسماعيل تعود بالدرجة إلى جمال الأفغانى وتلميذه محمد عبده، وكان من ثمراتها إصدار الصحف، وتأليف الحزب الوطنى والدعوة للمصرية والمطالبة بالدستور وقد أجهض الاحتلال البريطانى هذه الجهود بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى. وقاد التابعون لجمال الأفغانى أو الذين صحبوه فى الفترة الأخيرة كسعد زغلول وأحمد لطفى السيد الحركة الفكرية التى جاءت مع ثورة ١٩، وإن طورت الأحداث الاتجاه ..

**ما يضعنا فى مازق هو: أين نجد هذه النظرية ؟ ..**

إننا لم نكن بحاجة للبحث طويلاً أو بعيداً لأن هذه النظرية موجـودة فى أعماق التاريخ المصرى، وقد كـانت هـى التـى كونـت الحضـارة المصرية، ومكنت مصر من تحقيق إنجازاتها العظمى فى السلم والحـرب، تلك هى الدين. الذى يعنى عملياً الإسلام إذ هو نهاية مسـيرة مصـر فـى الدين وهو دين ٩٥% من السكان .

والذى حال دون أن يكون الإسلام دعامة الحكم هو أن محمد علـى تنكر لما تعهد به لشيوخ الأزهر لأنه وجد أن هذا سيغل يـده عـن الحكـم المطلق الذى يعتزمه، ولم يكتف بهذا، بل إنه فرق وحدة الشيوخ وتوصـل إلى اصطناع بعضهم بحيث عجزوا عن التصدى له، ثم بدأ إرسال البعثـات للخارج لتأتيه بعلم وفن وصناعة أوروبا، ولم يكـن هـذا سـيئاً، ولا هـو يتعارض مع توجهات الإسلام الذى يريد العزة للمؤمنين ولكن محمد علـى كان ضد الإسلام، كما كان ضد المصريين ولم يستعن بـهم إلا مضطـراً، وكانت خطته تلك هى خطة خلفائه الذين حكموا مصر، وكانوا - باسـتثناء إبراهيم باشا الذى مات ومحمد على حى - مجردين من الموهبة، بل يمكـن القول أن أسرة محمد على كانت أسرة فاسدة متحللـة، وكـان أفرادهـا - باستثناء قلة نادرة - من الصغار الذين تستولى عليهم الشهوات ويفخـرون بالمظاهر، وفى بيت فؤاد كانت إحدى المربيات - مس برودينت - تعمـل لتحويل أبنائه إلى المسيحية، ولم تكن تحاول ذلك سراً فقد ذكـرت لإحـدى سيدات السراى "إنها سوف تلقنهم دينها لأن ضميرها لا يسمح لها بأن تفعـل غير ذلك" !!

وكان يمكن للانقلاب العسكرى فى ٢٣ يوليو أن يكون أقرب إلـى الإسلام من أسرة محمد على، فلم يكـن ضباطـه بعيديـن عـن الإتجـاه الإسلامى، ولكن الصراع على السلطة فرض على عبد الناصر ما فرضـه من قبل على محمد على، وثمة تشابه غريب بين مسلك البكباشـى محمـد على والبكباشى جمال عبد الناصر نحو الاتجاه الإسلامى، ففى الحالتين كان الإسلام هو الذى رفعهما إلى السلطة: وفى الحالتين أعلنا حرباً شعواء علـى الإسلاميين الذين مكنوهما من السلطة، ووصلت هذه الحرب إلى أشدها عند

عبد الناصر، وانحطت إلى درك الخسة والنذالة عند استخدام التعذيب بصفة منهجية ومقررة وهو أمر لم يقع فيه محمد على ..

وبتأثير الصراع على السلطة بين عبد الناصر والإخوان المسلمين أصبح من الخطوط المقررة فى السياسة المصرية مقاومة التيار الإسلامى، وملاحقته وهذه فى الحقيقة هى مأساة ٢٣ يوليو، والسبب الحقيقى فى عدم تجاوب الشعب مع نظامها الحاكم من عبد الناصر حتى الآن (نحن لا نتكلم عن المضللين والأدعياء أو المنتفعين أو المتورطين فى مآثم الناصرية) .

**إن هذا الخطأ التاريخى من محمد على حتى جمال عبد الناصر، والذى أدى إلى سقوطهما وانتكاس محاولتهما هو ما يجب إصلاحه الآن .**

وإذا أضفنا إلى هذا أن الإسلام قد تغلغل فى وجدان المصريين كأفراد وعادات وعرف وأنه حتى الأقباط والمستوطنين تأثروا به، وأنه لا يمكن لأى نظام يحترم نفسه، ويحترم شعبه أن يتجاهل هذا الجذر المتغلغل فى حياة الشعب وتاريخه منذ أن ظهر على مسرح التاريخ حتى العصر الحديث ..

إذا انتهينا إلى هذا.. فإن النتيجة أن الإسلام هو المؤهل وحده لأن يكون قاعدة الثورية المصرية لأنه أشد المذاهب التصاقاً بمصر وتجاوبا مع حضارتها، ولأنه الوحيد الذى يقدم "نظرية" فى أسمى صورها فى القرآن الكريم، ولأن هذه النظرية بالذات ستكفل المشاركة الجماهيرية لتحقيق التغيير الشامل الذى هو هدف الثورة .

* * *

**يبقى أمر آخر يتطلب إيفاء الموضوع حقه الإشارة إليه. هو هل هناك بديل آخر عن الإسلام ؟ هل يمكن أن نجعل نظرية الثورة اشتراكية أو ديمقراطية ؟**

أما الاشتراكية فهى مستبعدة نظرياً وعملياً، لأن الاشتراكية لا محل لها فى دولة تؤمن بالإسلام، فالإسلام فيه أفضل ما فى الاشتراكية - وهى العدالة - ويتحرر من أسوأ ما فيها أى الديكتاتورية، وإنما تكون الاشتراكية

فى الدول الأوربية التى نفضت المسيحية فيها يدها من نظم الحكـــم بينمـــا أمضت الكنيسة الكاثوليكية تاريخها مناوئة للعلماء والأحرار مهادنة للحكـــام والملوك على حساب الجماهير الخ... مما جعل للاشتراكية مكاناً فى أوربا

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فقد تهاوت الثـــورة الاشتراكية التى قادهـــا أنبيـــاء الاشـــتراكية وأوثانـــها المعبـــودة. لينيـــن، وتروتسكى وستالين، ولم تقم لها قائمة، فمـــن غـــير المعقـــول أن نـــهتدى بالشمس الغاربة، لأنها ستتركنا فى الظلام الدامس ..

أما الديمقراطية، فليست الديمقراطيـــة نظريـــة، ولكنـــها ممارســـة وأسلوب فى الحكم بالأغلبية، وهى تقوم علـــى تـــداول الســـلطة ووجـــود الأحزاب الخ... ولكنها ليست أيدلوجية وليس لها تنظير .

وكان لمصر تجربتها الديمقراطية بفضـــل دســـتور ٢٣، وحققـــت مصر طوال الفترة من ٢٣ حتى ٥٢ معظم إنجازاتها، كما أنجبـــت معظـــم رجالاتها، وإليها يعود ازدهار الآداب والعلوم والفنون والصحافـــة، ولكـــن يجب أن لا ننسى أن هذه الديمقراطية سمحت للأجـــانب بالســـيطرة علـــى الاقتصاد فكل شركات المرافق مياه ونور ومواصلات وتليفونـــات وإذاعـــة الخ.. وكل الشركات الصناعية والتجارية والزراعة كانت فى أيدى الأجانب وكانت كلها تستخدم اللغات الأوربية، ولا تسمح للمصريين إلا بشغل أقـــل الوظائف شأناً، ولم يكن جهد طلعت حرب إلا محاولة فردية قد يمثلـــها أن شركته "شركة بيع المصنوعات" كانت المحل المصرى الكبير الوحيد فـــى شارع فؤاد، ولم تكن لتماثل شيكوريل أو هانو أو بقية المحال التى لم يكـــن المصريون يدخلونها "باستثناء الباشوات والبكوات" وكان المربع من الأوبـــرا حتى كوبرى قصر النيل فى القاهرة كما كانت منطقة محطة الرمـــل فـــى الإسكندرية ومحالها الكبرى كالجراند تريانون والبتـــى تريـــانون، وفنـــدق سيسل الخ.. مناطق أوربية بمعنى الكلمة تجـــد فيـــها الســـلع والمنتجـــات، والرجال والنساء من كل أوربا، كما كان للأجانب فى مصر والإســـكندرية أحياء راقية، ونوادى مقصورة عليهم، وكادت البنوك العقارية التى يملكـــها اليهود والأجانب أن ترتهن ثلث أراضى الفلاحين كمـــا قضـــت تلاعبـــات البورصة – وكل سماسرتها أجانب – على ثروات ملاك الأرض .

وأدى التغلغل فى المجال الاجتماعى إلى نوع من التحلل، ففى كل قرية كانت توجد خمارة يملكها يونانى أطلق عليه المصريون أسم "ينى" وكانت المشروبات الكحولية تباع فى محلات البقالة، والحلوى وفى كل مدينة منطقة خاصة بالبغاء، وكانت الراقصات من ملهى فولى بورجيه فى باريس أو ملاهى فينا أو المجر تحضر رأساً إلى الإسكندرية بينما كانت فرق الكوميدى فرانسيز تحيى حفلاتها على الأوبرا الملكية بالقاهرة .

وقد كان هذا يحدث فى الفترة التى أعقبت ثورة ١٩١٩، وهى قمة الوطنية المصرية وظهور دعوة التمصير ولكن الحزبية، وهى جزء لا يتجزأ من آليات الديمقراطية أفسدت الوطنية المصرية ولوثتها وحولتها إلى مصالح ومكاسب حزبية .

ومما لا يخلو من مغزى أنه فى هذه الفترة بدأ الزحف الصهيونى على فلسطين، وكانت بمصر جالية يهودية كبيرة لها نوادى اجتماعية ورياضية مثل نادى المكابى، ويشغل حاخامها مركزا مصريا رفيعاً، وشغل الوزارة أحد اليهود وكانت كبيرة وصيفات الملكة يهودية، وكان هناك جمعيات مثل "نقطة اللبن" تجمع الإعانات لليهود، وترسلها لتل أبيب وعندما تأسست الجامعة العبرية حضرت الحفل فى تل أبيب شخصيات مصرية .

كانت المجموعة الوحيدة التى توصلت إلى خطر هذه الظاهرة هى مجموعة الإخوان المسلمين التى بدأت من سنة ٣٦ تشارك الفلسطينيين محنتهم وتنبه الرأى العام المصرى إلى خطورة الصهيونية فى الوقت الذى كان رئيس وزراء مصر يقول أنه رئيس وزراء مصر وليس رئيس وزراء فلسطين ..

ولم يجد السيد أمين الحسينى أو ممثلو الشعب الفلسطينى ملاذاً إلا فى دار الإخوان المسلمين، وعندما بدأت المعركة أحرز متطوعو الإخوان انتصارات مدوية، وكان يمكن أن يتغير المصير ولا نجد أنفسنا فى مثل ٦٧ لو سمحت الحكومات الديمقراطية الحزبية للإخوان بالانطلاق.. ولكن المتطوعين كانوا يؤخذون من ميدان القتال إلى معسكر الاعتقال ..

ففى هذه المسألة – مسألة إسرائيل – كان الإيمان الدينى أهدى سبيلاً من الحسابات السياسية والحاسة القومية .

من هذا العرض نعرف أن الديمقراطية، وإن كانت لها حسناتها التى لا شك فيها، إلا أنها ليست هى كل شئ، كما أنها ليست صفواً خالصاً،

وقد كان أكبر نقص فى التجربة الديمقراطية المصرية أنها لم تعط المقـــوم الإسلامى حقه. فلم يتجاوب الشعب معها، وأقتصر جمهور الأحزاب علــى النخب المثقفة و "العصبيات" فى القرى .

ولأن التجربة الديمقراطية المصرية كانت هشة فإنـــها لــم تقــاوم العسكر واستسلمت لمجموعة مغامرة من الضباط ولم تقم بأى مقاومة ..

فى كل هذه المرحلة كان الإسلام هو الحاضر الغائب فكلما نظــرت إلى الجماهير وجدت الإسلام، وأينما نظرت إلى السياســة وجــدت ســقط المتاع الأوربى والمذاهب والنظريات الخادعة، وهذه المفارقة تعود إلــى أن إحساس الجماهير ووجدان الشعب له جذوره الإيمانية العميقة، وأن الشــعب رغم كل الغشاوات التى تراكمت على الإسلام يحس بالحنين إليه، وقد كانت ميزة الديمقراطية الكبرى هى حرية الفكر كما كانت نقيصتها الكبرى هــى إغفال العدل والمعنويات فى أعلا بلورة لها وهى الأديان، وفــى الإســلام ميزة الديمقراطية لأنه يقوم على حرية الفكر، كما يبرأ من نقيصتــها لأنــه يقيم العمل.. على العدل .

**وقد آن الأوان لينتهى هذا الفصام المشئوم الذى كان أكبر أسـباب تهاوى التجربة الديمقراطية فى مصر، وسقوط محــاولتى محمـد علـى وجمال عبد الناصر .**

**ولكـــن ...**

**هذا كله إنما يصح بعـد تثويـر القـرآن - نظرية الثورة - وتخليصه من الغشاوات ..**

**وبدون ذلك فقد يوجد حكم يدعى الإســلام وهو إلى الكهنوت أو الخوارج أقرب ..**

**وتضاف خيبة جديدة إلــى الخيبــات التــى لحقت كل تجــارب الحكــم التــى تدعــى الإسلامية ..**

**من أجـل هــذا ينبغى تثـوير القــرآن .**

## ٢ - كيف ؟؟

قد يكون علينا قبل ان نتحدث عن كيفية تثوير القرآن أن نعلم - على وجه التحديد - ماذا أراد الله والرسول بهذه الكلمة .

لقد جاءت إشارة إلى أحد اشتقاقات الكلمة فى القرآن الكريم عندما قال ﴿ .. وأثاروا الأرض وعمروها ﴾ وفسر صاحب معجم ألفاظ القرآن كلمة "أثاروا" "أثار الأرض حرثها وشقها وقلبها للزراعة أو لغيرها كاستخراج المعادن أو استنباط الماء .

وفى الحديث جاء تعبير "ثوروا القرآن" و "أثيروا القرآن" قال مؤلف "مجمع بحار الأنوار" "من أراد العلم فليثور القرآن أى لينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته. وأثيروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين" ويستثير فيها من الفوائد. أى يستخرج . { ص ١٤٨ ج١} ..

ومن هذه التعريفات نعلم أن المطلوب بتثوير القرآن، وإثارة القرآن، هو ما أراده القرآن عندما تحدث عن تدبر القرآن ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ والفهم السليم لألفاظه وكلماته بحيث يستخرج منها المعنى الذى يمثل روح القرآن ..

ولكى نحقق تثوير القرآن لابد من القيام بعمليتين صعبتين ..

**الأولى:** إزالة الغشاوات التى أهالها الأسلاف أكداساً على القرآن الكريم، وقد رأينا نماذج منها فى فصل سابق، وكيف أنها حرفت بعض المعانى، وحجبت معانى أخرى وميعت الصياغة المحكمة التى تحدث الأثر الذى أراده القرآن ..

**الثانية:** تقديم تصور لما يكون عليه الفهم السليم للقرآن الذى يحقق التثوير بالفعل .

**ودون كل واحدة من هذين خرط القتاد ..**

فأولى هاتين العمليتين والتى تبدو سهلة ستتطلب منا استبعاد التفاسير التى اعتمدتها الأجيال كأداة لفهم القرآن بينما كانت فى الحقيقة حجابا بينهم وبين الاقتراب المباشر من القرآن وبالتالى تذوقه، وتدبره والغوص فى أعماقه وتفهم ثوريته ...

وهذه التفاسير التى تحمل أسماء مقدسة، إن لم تكن موثنة، مثل ابن جرير الطبرى، وابن كثير، والقرطبى، والزمخشرى، تعد قدس الأقداس، وهناك عشرات الألوف من الشباب السذج المتحمس الذى يفضل الموت الزؤام على المساس بها، ووراءهم الأئمة الأعلام الذين يشغلون أرقى المناصب ولا يترددون فى الإفتاء بتكفير من يريد الخلاص من هذه التفاسير أو يرون فى هذا مؤامرة على الإسلام !

ومما يلفت النظر أن قادة الدعوات الإسلامية الجديدة لم يتصوروا الاستغناء عن هذه التفاسير، حتى وإن انتقدوا الإسرائيليات فيها، ولم تخطر لهم فكرة رفض التفاسير من ناحيتى المبدأ والتطبيق. من ناحية المبدأ لأن أى تفسير لابد وأن يكون إسقاطا بشريا على معانى القرآن وبالتالى قول بالرأى.. أو افتيات عليه. ومن ناحية التطبيق لأن تفسير القرآن آية آية يعنى تقطيع أوصاله، والحيلولة دون وصول المعنى الكلى ونفاذ هداية القرآن الناتجة عن تلاحم آياته بعضها ببعض وما تثيره فى النفوس والقلوب. بل إن زعيمين من أكبر زعماء الدعوة الإسلامية المعاصرة الشهيد سيد قطب والعلامة المودودى وضعا تفاسير، إن تجردت من الخرافات والخزعبلات فإنها لم تتجرد - ولا يمكن أن تتجرد - من الإسقاط على القرآن وتفسير معانيه من زاوية ما. فضلا عن اتباعهما التفسير آية فآية، وهو الذى يهدر فعالية الخطاب القرآنى. ومن ثم فإنهما فى هذا المنهج سارا على المنهج السلفى.. وهو ما يعطينا فكرة عن المنزلة المقدسة

لتفاسير القرآن الكريم، والمعركة الحامية التى لابد أن تتصدى لـها عندما نقول: **" ارفعوا أيديكم عن القرآن" أو " أطلقوا سراح القرآن من قضبان التفسير" أو "دعونا ننقذ القرآن.. حتى ينقذنا القرآن.."** .

سيكون علينا أن نقول، وأن نعيد ما نقول، إن الأسلاف رغم نبوغهم وعكوفهم وتجردهم ليسوا معصومين، ولا كاملين، وأنهم كانوا أبناء عصرهم المغلق الذى تسود فيه الخرافة كما يسود الاستبداد وكانت وسائل المعرفة محدودة وصعبة قبل ظهور المطبعة وتيسير وسائل الانتقال ..

لابد أن نقول، ونعيد ما نقول، إننا لو فرضنا جدلاً صحة ما انتهى إليه هؤلاء الأسلاف فنحن مطالبون بأن نعمل عقولنا ونقدم إضافتنا ولا نقنع بما قدموا لأن من المؤكد أن هناك جديداً على ما قالوا، وإننا إذا لم نعمل عقولنا ونقدم إضافتنا فإن عُقولنا ستصدأ وملكات تفكيرنا ستتبلد، وعندئذ سنكون ضحية للخرافة، ولن يكتب لنا أن نتقدم أبداً.

لابد أن نقول، وأن نعيد ما نقول.. إن صيحتنا هذه ليست إلا ترديداً لأوامر القرآن الكريم الذى ندد مراراً وتكراراً بالذين إذا دعوا إلى ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا وهو ما يفعله المسلمون اليوم فنحن إذا دعوناهم إلى القرآن قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا من الشيوخ والأئمة... فأى مسلم يحترم القرآن ويطبقه.. يقبل هذا .

لابد أن نقول، وأن نعيد ما نقول، إن اطراح العقل والتفكير والتدبر والعكوف على الاتباع والتقليد هو نزول عن الإنسانية إلى مستوى الحيوان، وليس هذا حكم طبائع الأشياء فحسب ولكنه الحكم الصريح الصادع للقرآن الكريم ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

إن هذه الدعوة – مع أنها سلبية – فإنها "ثورية" ليس فحسب لأن الجانب الإيجابى لا يمكن أن يقوم إلا بعد أن تتحقق، ولكن كذلك لأنها أمام صدأ العقول وموت الهمم تعد ثورية، وهل كانت ثورة الحضارة الأوربية فى أول مراحلها إلا ثورة على الكنيسة وتحريراً للعقل من الطاعة والتقليد والاتباع ...

ومع أن المعركة ستكون طويلة، وحامية، ومريرة، فإننا فى النهاية سننتصر، لأنه لا يصح إلا الصحيح، ولأن الأوضاع التى ترتبط بمصالح ذاتية تزول بزوال أصحابها. ﴿ فإما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ وكما تهاوت سلطة الملوك أمام إرادة الشعب فإن سلطة الفقهاء ستتهاوى أمام قوة العقل .

* * *

وعندما يتم هذا سيتبدى لنا القرآن، كما تبدى للأولين، بكل جماله وجلاله، بكل روائه وبهائه، بكل إلهاماته وهداياته... كالشمس تقدم النور والدفء...

وكما قلنا فى مستهل هذه النبذة، فإن ثورية القرآن ليست شيئا آخر غير حسن فهم القرآن والتوصل إلى أسراره وأعماقه.. لأن هذا هو ما يحقق الثورية، وقد رأينا أن التفاسير التقليدية تحول دون ذلك .

ونتضرع إلى الله أن يوفقنا فى استكشاف ذلك كما وفقنا فى استكشاف سر الإعجاز القرآنى الذى أعيا الأولين التوصل إليه عندما عالجوه من منطلق الإعجاز البيانى.. فى حين أن القرآن ليس كتاب أدب وبيان قدر ما هو كتاب فن وإيقاع، وأن أهم عناصره هو النظم الموسيقى يتلوه التصوير الفنى، وبهذا يضم القرآن فنين من أسمى الفنون وهما التصوير والموسيقى.. بعد هذا تأتى المعالجة السيكولوجية للإنسان التى تضرب على الأوتار الحساسة فيه.. وأن القرآن بفضل هذه العوامل التى تذهب مباشرة إلى أعماق النفس الإنسانية، وتهزها يوجه الإنسان لإعمال العقل.. وتطبيق القيم ..

نقول أننا هنا أيضاً - فى موضوعات القرآن - نرجو أن نوفق .

ومفتاح ذلك أن نحدد الموضوعات الرئيسية التى يدور عليها الخطاب القرآنى وهى كما نرى ..

**أولا:** الله تعالى .

**ثانيا:** اليوم الآخر .

**ثالثا:** الرسول (ويتبعه بقية الرسل) .

**رابعا:** الإنسان، والمجتمع الإنسانى .
**خامسا:** الكــون .
**سادسا:** العــقل .
**سابعا:** القيــــم .

هذه هى الموضوعات الرئيسية التى يدور حولها الخطاب القرآنــى والفهم السليم للقرآن، وهو البديل الأمثل عن التفسير، هو جمع كل ما جــاء فى القرآن عن موضوع منها بحيث تتضح كل أبعاد الصورة التى يريدهـــا القرآن لهذا الموضوع .

ولا يقتصر الإعجاز القرآنى على أنه قدم "توليفة" تضم كل القضايـا الرئيسية، ولكن أنه عالج كل قضية من هذه القضايا معالجة مثلــى جــاءت فى إطار صياغة مثلى أيضاً، وهذا ما يمثل ثورية القرآن .

**فلننظر مثلاً كيف عالج القرآن الكريم موضوع "الله تعالى" نجـد أن** القرآن قد استبعد التجسيم الذى أدى إلى الوثنية، والتجريد الـــذى يفقـد الله تعالى الحياة ويجعله "فرضاً فلسفياً" وكيف أنه دلل على وجـــود الله تعـالى بالخلق. فكيف ظهر هذا الكون بسمائه وشموسه وأقماره وبحاره وأنـــهاره، وكيف يسير بضبط وانتظام وإيقاع لا يخل، وكيف خُلق هذا الإنســان فــى أبدع تقويم. إن القرآن الكريم يدلل بهذا كله على وجود الله ويقضــى علــى كل الشكوك فى جملة واحدة ﴿ أم خلقوا من غير شئ.. أم هم الخـــالقون ﴾ إذن لابد من خالق ولابد لهذا الخالق الذى وَهب الحياة أن يكون هو نفســه حياً، ورمزاً للحياة ولابد أن يكون حكيماً غاية الحكمة قادراً كل القدرة ...

أما عن ذاته فقد قال بصريح العبارة إن العقل الإنسانى لا يمكـن أن يصل إليها أو حتى يقرب منها وهذا أمــر لا يرفضــه العقــل لأن العقـل البشرى لا يدعى أنه علم كل شئ فى الكون بأسره، وتوصل إلى أسرار كـل شئ، وما يصل إليه بالنسبة لله هو صفاته، وقــد اتفقـت كــل تصــورات الفلاسفة الأوربيين الذين قدموا تصوراً لله تعالى مع ما قدمه القرآن (١) .

---

(١) أنظر كتابنا " الإسلام والعقلانية " ..

إن إعجاز القرآن فى هذه القضية لا يقتصر على أنه حــل مشــكلة الألوهية التى حيرت البشرية وضلت فيها الأفهام، ولكــن أن القــرآن قــدم "المثل الأعلى الأعظم" عندما قرن بالله تعالى الأسماء الحسنى التى تجعلـــه مصدر القيم وكان هذا المثل الأعلى الأعظم هو أقوى عامل للإلتزام بـالخير والسلام وإتباع القيم والأخذ بمكارم الأخلاق كما قــدم الإشــباع الروحــى والسكينة النفسية .

ومن المؤسف أن موضوع الألوهية، وما ينبغى لله تعالى قد عولــج من المسلمين معالجة شكلية لم تلتزم بما جاء فى القرآن ولكنها انحرفت إلــى متاهات وأقحم فيها عناصر غريبة بتــأثير المنطــق الأرســطى والفلســفة اليونانية الوثنية وأطلق على هذه المعالجة "علم الكلام !!" ولم يتغــير هــذا الأسلوب منذ أن وضعه المعتزلة، ولم يخلص منه الغزالى أو حتى الشــيخ محمد عبده فى رسالته "رسالة التوحيد" ..

وأدت هذه الطريقة المجافية لطريقة القرآن لأن يفقد "الإيمان بـــالله" عناصر القوة والحيوية والفعالية، وشلت أعظم حافز ودافع وأقــوى مؤثــر وملهم .

**وبعد الإيمان بالله يأتى الإيمان بـــاليوم الآخــر**، والعنايــة بــهذا الموضوع وتأكيد حقيقته من أبرز ما يتميز به الإيمان الإسلامى، وقد كـــان هو – وليس وجود الله تعالى فيصل التفرقة بين الإسلام والأديان الأخــرى – أو حتى بين الأديان وبين جماهير عديدة كان من الصعب عليها أن تؤمــن بأن الإنسان بعد أن يموت ويصبح رفاتاً وترابا يبعث من جديـــد ويحاســب بالعدل على ما قدم حساباً لا يفلت صغيرة ولا كبيرة نقول كان من الصعــب على الناس أن يصدقوا هذا "وقد جاء رجل إلى النبى وفى يده عظم متـــآكل فقال له هل يحيى الله هذا العظم.. فقال الرسول ﷺ نعم فولى الرجل مدبراً

وكان رد الإسلام أن الله خلق الإنسان من طين فلا يعجزه أن يبعثـه من تراب .

ولم يحظ "اليوم الآخر" فى أى دين بالمنزلة التى حظــى بــها فــى الإسلام، ربما باستثناء الديانة المصرية القديمة كما ذكرنا ذلك آنفا ..

ويعود الأثر العظيم لليوم الآخر إلى أنه يحكم تصرفات الإنسان فى الحياة الدنيا، ويقيم العدل أساساً وفيصلاً، ويستدرك ما أخطأته عدالة الدنيا من إثابة للمحسنين أو عقاب للمذنبين.. فى عدالة اليوم الآخر، وهذه هى الفكرة الأساسية فى اليوم الآخر "**كمال العدالة**" وهو تصور يتقبله بل يرحب به العدول قدر ما يرفضه ويضيق به الظلمة ..

ومن الطبيعى أن يختلف فرد يؤمن باليوم الآخر عن فرد لا يرى له وجوداً ويقول ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ فإن فكرة العدالة والخلود تظلل حياة الأول فى حين أن الثانى لا يعرف وجوداً سوى حياته على ظهر الأرض، وأن ليس بعدها إلا الفناء فهو يحرص على حياته ويعمل ليطيلها، ويبعد عن كل ما يمسها، كما يعمل لذلك بما يجعل هذه الحياة سعيدة ومن ثم يبعد عن أى تضحية، أو عناء أو خوض المعارك الخ... ولكنه مهما يحصل عليه من استمتاع فإن فكرة "الفناء" تنغص عليه حياته.. وتثير فيها الاكتئاب.. فما قيمه حياة تنتهى إلى العدم.

وتحدث القرآن عن نهاية هذه الحياة الدنيا، واندثار هذا الكوكب الأرض - الذى سيرسم بداية الحياة الآخرة حديثاً دراماتيكيا - ديناميكيا - مروعاً ولعل الأجيال الحديثة تتفهمه أكثر من الأجيال القديمة فنحن نعلم إن الأرض ليست إلا كوكبا صغيراً يسبح مع ملايين الكواكب فى الكون العميق، وإن لو أقترب بالأرض أكثر مما هو مقرر له أحد هذه الكواكب لتفجرت الكرة الأرضية وأخرجت أثقالها وفجرت بحارها ومحيطاتها ونسفت جبالها نسفاً فأصبحت كالعهن المبثوث بل قد تحدث هذه الكارثة المروعة لو اصطدمت شظية من ملايين الشظايا السابحة فى الكون بالأرض. على أن الإنسان لديه ما يمكن أن يدمر الأرض تدميراً كما أن سياسات الأنانية لوثت الأرض والسماء مما يمكن أن يجعل المحيطات تكتسح الأراضى، ولدى الدول الكبرى من أسلحة الدمار الشامل، ومن الغازات والميكروبات ما يجعل البشرية كلها قطيعاً من المرضى والمجانيين .

إن كل هذه المخاطر محتمله، وما دامت محتملة فيغلب أن يقع أحدها.. وهو يكفى لدمار الأرض ومحو الحياة الإنسانية فيها ويحدث ما وصفه القرآن وصفا دقيقاً مروعا من أكثر من ألف وربعمائة عام، ولا يخفف من رعب الإنسان إزاء ذلك إلا معرفته أن وراء هذه الكارثة الرهيبة حياة جديدة أكثر عدلاً من الحياة الإنسانية الأولى ..

وهذه المعانى كلها هى ما أستبطنها الصحابة الأول حتى وإن لم يحدث هذا بالأسلوب الذى عرضناه، وهى أيضا ما يستشعرها كل واحد يقرأ ما جاء فى القرآن الكريم عن اليوم الآخر ..

**والإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر هما ما يمثلان "الغيبية" فى** موضوعات القرآن الكريم السبعة، وقد هاجم الفكر الأوربى فكرة "الغيبية" وقرنها بالخرافة، وأعاد إليها سر تخلف المسلمين. وليس الأمر كذلك. فإن كمال العدالة لا يتأتى إلا بحكم الحياة الآخرة، وإلا فلن يثاب الملايين من الجنود المجهولة التى تعمل فى صمت وظلام دون أن يحظوا بشكر أو ثواب، وسيفلت من العقاب الألوف الذين يقترفون السيئات ويتمكنون بفضل الدهاء والذكاء من إخفاء جرائمهم أو إلباسها ثوب الشرعية.. بل قد يصل الأمر إلى ما كان مطبقا فى اسبرطة فالسارق والقاتل الذى يخدع السلطات فلا يقبض عليه يعد بطلا.. أما الذى يقع فى أيدى الشرطة فهو مجرم ! وهناك جوانب أخرى للغيبية لا يحيط بها الأوربيون، فوجود النار "الجحيم فى الآخرة" أبعد العقاب بالنار من التشريع الجنائى الإسلامى، بينما كان الحريق فى أوربا هو عقوبة الزندقة والهرطقة وأى خروج على الشرع المقرر، وعندما يصرح القرآن الكريم فى آيات عديدة بأن الله تعالى يفصل فى الخلاف ما بين الملل والنحل يوم القيامة فإن المعنى العملى لذلك إقرار وجود الاختلافات وبقائه، وأن الله تعالى - وليس السلطات - هو الذى يفصل فيه .

**الموضوع الثالث الذى يُعنى به القرآن هو الرسول** ويدخل فيه موضوع الرسالة وبقية الرسل، لأن رسولنا ليس إلا النبى الأخير فى سلسلة من الأنبياء الأخوة أرسلهم الله لإعطاء البشر فكرة صحيحة عن الألوهية. إن الناس قد تهتدى بفطرتها إلى وجود إله، ولكنها تعجز عن تصور ذات

هذا الإله ومن ثم فقد تتمثله فى الشمس أو القوى الطبيعية أو الأباء الـخ... وقد تنسب إليه ما تألفه من طباع، ومهمة الرسل هى تقديم التصور السليم بقدر ما يمكن للعقل البشرى استيعابه عن الله تعالى ..

ورسالة الأنبياء تستتبع بداهة الإيمان بوحى يحمل رسالة الله تعالى إلى الرسول ..

أما كيف يكون هذا الوحى وما هى طبيعته، وما هى طريقة كلامه الخ... فهذه جوانب قد يصعب على العقل استيعابها لأنها جزء من عالم الغيب الذى استأثر الله بعلمه، ما يعنينا هو أن الله تعالى يبلغ رسالته بما يشاء من الطرق.. وأن الرسول لا ينطق عن هوى ولا يتحدث من تلقاء نفسه وإنما هو يعبر عن رسالة من الله لا يملك أن يغير أو يبدل أو يزيد أو ينقص منها ..

بالإضافة إلى هذه المهمة التى من أجلها أرسل الله رسله، فإن الرسل يقدمون المثل لما يجب أن يكون عليه الناس. وما يتصفون به من كرم الخلق ومن الشجاعة والكفاح والتضحية دون أن يطلب أجراً، أو يريد جاها أو منصباً فهو من هذه الناحية يختلف عن صورة البطل التقليدية الذى لا يعمل إلا للزعامة ويستحل ما تضفيه هذه الزعامة عليه من غنائم، وهم يقدمون "القدوة" التى يقتدى بها الناس، وهو أسلوب سائغ من أفضل أساليب التربية.

ولم يتحدث القرآن عن عدد الأنبياء والرسل ولكنه أشار إلى أنه ما من قرية إلا خلا فيها نذير، وقد تحدث بإفاضة عن نوح وإبراهيم وأبنائه اسحق ويعقوب وإسماعيل وبنى إسرائيل وغيرهم وفرض على المسلمين الإيمان بهم جميعا وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، وهذه درجه من المساواة قلما يصل إليها دين إذ المشاهد أن لا يذكر الدين إلا نبيه، وقد يشير إشارة عابرة إلى أنبياء آخرين، ولكنه لا يوجب على أتباعه الإيمان بهم، ومن باب أولى - المساواة ما بينهم وبينه وهذا أحد الأدلة الناطقة بموضوعية الإسلام .

وأعتبر القرآن أن الأنبياء هم قاده البشرية وهداتها وعادة ما يتصدى لهم الجبابرة والطواغيت من الملوك والحكام الذين يهيمن عليهم حب السلطة والسيطرة أو المترفين الذين أفسدهم الترف .

**الموضوع الرابع الذى يعالجه القرآن هو الإنسان.** ومن الواضح أن القرآن إنما نزل لهداية الإنسان فلو كان الترتيب تبعاً للهدف لنال الإنسان الأولوية، وقد تحدث القرآن عن الإنسان الذى خلقه الله من طين وتراب أو صلصال ونفخ فيه من روحه فخلقه فى أبدع تكوين وزوده بالسمع والبصر والأيدى والأرجل والقلب والعقل، وغرس فيه الغرائز والملكات والطبائع ثم "علمه الأسماء كلها" وهى نقطة سنعالجها فى فقرة خاصة لأهمية مدلولها وأمر الملائكة بالسجود له، وجعله فى الأرض خليفة

وتحدث القرآن عن الإنسان كما خلقه الله ونفسه التى ألهمها فجورها وتقواها، ولم يستبعد منه الذنب والخطأ، بل إعتبر ذلك جزءًا من طبيعته، ووضع له الطريقة التى لا تجعل الشهوات تستبد به كالإستغفار، والتوبة، وأداء الحسنات التى تجب السيئات.. وأداء المكفرات الخ...

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾. ﴿ الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللمم ﴾ .

وحل القرآن مشكلة الشر التى حيرت الأديان وجعلت بعض الأديان تؤمن بإلهين واحد للخير والنور وآخر للشر والظلام.. عندما أبرز دور الشيطان فى غواية الإنسان لتكون الحياة نوعاً من الاختيار والمبارزة ما بين الخير والشر، هداية الأنبياء وغواية الشياطين، وليظهر دور الإرادة الإنسانية وحرية الاختيار .

وتحدث القرآن عن الإنسان كذكر وأنثى وسوى بينهما وإن أبرز أن لكل دوره، وأقام الحياة الزوجية على المودة والسكينة والرحمة، وحاط

الرجال والنساء بضمانات لحماية الكرامة الإنسانية وكفالة الحقوق فقرر حرية الفكر والاعتقاد، وحمى الملكية والخصوصية، واستبعد إيقاع أى عقوبة إلا بالحق، وكرد أو قصاص. وجعل العدل فيصلاً فى العلاقات وشدد على الوفاء بالعهود والقيام بالالتزامات وندد بكل صور التمييز القائمة على لون أو عنصر أو جاه، وحرم كل صور التجسس على الأفراد أو الحكم بالظن .

وبعد أن عالج القرآن الفرد الإنسانى عالج المجتمع ووضع أصولا لما يجب أن يقوم عليه من موضوعية تصل إلى حد شهادة الفرد على نفسه، وعلى الأقربين ثم وضع خطوطاً عريضة تكفل السلامة للمجتمع مثل تحريم الربا وكل صور الاستغلال وإيجاب الزكاة والحث على الإنفاق، ومثل الأمر بالشورى والحكم بالعدل وأن تتعارف وتتألف الشعوب على مستوى العالم ..

وتحدث الإسلام عن الحرب والسلام واعتبر السلام القاعدة وأن الحرب لا تمارس إلا عند الضرورة ولكى لا تكون هناك فتنة، وحرم كل صور الوحشية فى الحروب كما أرسى مبدأ تحرير الأسرى "فاما منا بعد وإما فداء " .

**والموضوع الخامس من موضوعات الخطاب القرآنى.** هو الكون الذى تحدث عنه القرآن بصورة مستفيضة يندر أن نجد مثلها فى أى دين آخر، وهناك مجموعة من أسماء السور القرآنية تحمل أسماء " البقرة - النمل - النحل - العنكبوت " بينما تحمل مجموعة أخرى أسماء " الشمس - القمر - النجم - الحديد - البروج - الرعد - التكوير - الانفطار - الطارق - الدخان " وتحدث القرآن وأفاض فى ذكر السماوات والأرض والشمس والقمر ودعا المؤمنين ليسيروا فى الأرض ليشاهدوا آثار الحضارات ووجه الأنظار إلى مواطن الجمال فى الشجر والنبات والأرض الميتة، وقد أحياها الماء والزهور اليانعة والأشجار المثمرة .

وحقيقة الحال أن أى قارئ ينعم النظر فى القرآن ويتشـرب آياتـه لابد وأن يتكون فيه وعى كونى وتنشأ بينه وبين الطبيعة والكـون علاقـة وثيقة يسودها الإنساق والانتظام والإحساس بالجمـال والغائيـة، وأن هـذا الكون كله من جبال ونجوم وكواكب كلها تسـبح لله، وتـدور فـى فلكـها المرسوم وكلها من النملة والبعوض حتى الشموس والمجرات أمة واحدة .

هذه الألفة للكون والصلة الحميمة ما بين الكون المسخر للإنسـان، والإنسان المؤتمن على الكون تعمـق الانتمـاء وتمـلأ المشـاعر وتبعـد "الاغتراب" أو "العبثية" أو غيرها من المشاعر التى تتملك الإنسان الأوربـى فى العصر الحديث .

**والموضوع السادس من موضوعات القرآن هو العلـم والعقـل.** وهذا أيضاً أحد عناصر التفرد فى الإسلام الذى جعل القرآن معجـزة لـه، وفى القرآن الذى لابد وأن يتمحور - ما دام كتابا - حول الفـهم والفكـر. وهذان - أى الإسلام والقرآن - مرتبطان بما أراده الله تعالى للإنسان مـن تكريم لأنه "**علم آدم الأسماء كلها**" وهذه الواقعة نرى الإشارة إليـها فـى التوراة فى صورة ساذجة بعيدة عما أراده القرآن فقد قصد بها فى التـوراة أسماء الحيوانات أو النباتات ولكن رُمز بها فى القرآن إلى مفاتيح المعرفـة وعندما أمر الملائكة بالسجود لآدم لهذا السبب، فأنه كرم العلـم والمعرفـة إلى أبعد مدى وفضلها على العبادة .

وإعتبر القرآن أن التفكير فى مظاهر القدرة الإلهيـة وخلـق هـذا الكون العجيب سبيلاً ووسيلة للإيمان بالله أى أنه بنى الإيمان على المعرفـة، حتى وإن عجز العقل عن أن يلم بذات الله، ولهذا فإن الدعوة إلـى الفكـر وإلى النظر، وإلى التدبير تتخلل آيات القرآن وكثيراً ما يرد الحديث بصفـة "أفلا يعقلون" أو "أفلا يتدبرون" وهو استفهام فيه قدر من التبكيت ينم علـى أن المفروض فى الإنسان أن يستخدم عقله وفكره.. وقد يتحدث القرآن عـن "ذوى الألباب" وقد كره القرآن للناس أن يتبعوا آباءهم لأنـهم آبـاءهم دون تفكر فيما تركه هؤلاء الأباء بل رفض أن يخر المؤمنون إذا ذكروا بآيـات ربهم صما وعميانا أو الذين لا يستخدمون عقولهم وقلوبهم وأبصارهم التـى

خلقها الله لهم، وإعتبر أن الغفلة تهبط بالإنسان إلى ما هو أقل من الأنعام فقال ﴿... أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون ﴾ .

وقد تحدث القرآن عن العلم بما يوحى أنه الوسيلة للهداية والمعرفة وللتفرقة ما بين الخطأ والصواب، الحقيقة والخرافة، ولقب نفسه "العليم" فى قرابة ١٤٠ آية .

**أخيراً جداً نصل إلى الموضوع الأخير من المواضيع السبعة للخطاب القرآنى وهو القيم.** وهو فى الحقيقة أشبه بالثمرة لكل ما سبق من موضوعات. فإنما أراد القرآن أن يؤثر فى النفس الإنسانية بإيقاعه الموسيقى وتصويره الفنى وترغيبه وترهيبه ومعالجته النفسية كلها ثم توجيهه لإعمال العقل ليصل فى النهاية إلى تطبيق الإنسان للقيم التى جاء بها القرآن والتى تكفل له الهداية والسلام وتبعده عن الشقاء والشر وقد تحدث القرآن عن هذه القيم طويلاً وحث عليها، كما ندد بنقائضها ومن أبرز هذه القيم التقوى بالنسبة للفرد، والعدل فى المجتمع واستهداف الخير وتغليب الرحمة والسماحة وأن لا يصبح الإنسان عبداً لشهواته وبالذات شهوات المال، والسلطة والجنس التى تستبد بالناس .

وقد يقول قائل. إن الفلسفة تدعو إلى هذه القيم وتأمر بها، ولكن القيم عندما تأتى من الله، وفى كتابه **فإنها تكتسب أهمية أعظم وتصبح مقدسة كما تأخذ طبيعة "موضوعية"** لأن الله تعالى يخاطب البشرية كلها ولا يفرق بين جنس وجنس، وحتى الذين آمنوا، فإنما تكون أفضليتهم لإتباعهم القيم، وليس لأى معنى آخر، وقد تبدو تلك ظاهرة طبيعية، ولكن الحقيقة أن القيم التى يضعها بعض الفلاسفة كثيراً ما ترتبط بجنس معين، ويمكن القول إن الشعوب الأوربية لا تؤمن بتطبيق قيم العدالة والمساواة على بقية شعوب العالم وأن أبرز، وأسوأ ما تتعرض له القيم التى يضعها المفكرون هى النسبية، وقلما نجد الموضوعية، والإطلاق إلا فى القيم التى تقدمها الأديان لأنها تقدمها للبشرية كافه، ولأنها فوق العواطف والمشاعر الذاتية التى تتحكم فى الجماعات والشعوب .

# خاتمة

عندما قلنا "تثوير القرآن" فهم البعض أن الثورة الناتجة عن ذلك ستشبه الثورات التى تضمنتها كتب التاريخ كالثورة الفرنسية والثورة البلشفية، أو حتى الانقلابات السياسية والعسكرية، وما تحفل به هذه الحركات من لوثات أبرزها تدمير الشرعية الدستورية وإحلال الشرعية الثورية المزعومة محلها .

وهذا خطأ محض، فتلك الثورات تورطت فى مآثمها لأنها لم تخلص من القصور البشرى فاستسلمت لما ظنته عادلا. إن زنج البصرة أرادوا استعباد سادتهم كما أن أتباع سبارتاكوس كانوا يريدون استرقاق الرومان وفى العصر الحديث وضع لينين مبدأ "اغتصاب المغتصبين" وهو ما ينم عن الطابع الذاتى الذى ما كان يمكن أن تخلص منه هذه الثورات، والذى يجعل الثورة بين القائمين بها والذين تثور عليهم مجرد تبادل الأدوار

إن تثوير القرآن شئ آخر. أنه التثوير الذى يلتزم التزاما صارما بضوابط الشرعية التى تصل إلى قمتها بالنسبة للإنسان وكرامة الإنسان وتمثلها الآيات ﴿ .. من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ هذا المبدأ الذى يكاد يكون النقيض للمبدأ الذى تقوم عليه الثورات والذى يجعل الهدف نجاح الثورة ولو قتلت الناس جميعا ..

وقد يكون أمل البعض قد خاب عندما سمع لأول مرة "تثوير القرآن" ثم اكتشف أن العملية ليست إلا التفهم العميق السليم للقرآن ككل

والتوصل إلى روحه وإلى مبادئه الكلية.. فهم كانوا يريدون الدماء والمحاكم الثورية والسجون والمعتقلات.. لأن ثقافاتهم ربطت ما بين الثورة وهذه الممارسات فإذا لم تقترن بها فليست ثورة .

لهؤلاء نقول هذا فهم أوربى خالص وأما فهمنا فهو قرآنى يستهدف تحقيق الإيمان بالإقناع والحوار فإذا تحقق الإيمان، فإن هذه الحالة تحكم ما سبقها وما بعدها، بمعنى أنها تَجُبْ ما سبقها لأنه حدث قبل الإيمان فلا يحاسب بمعايير الإيمان، ولا يجوز للماضى أن يحكم الحاضر والمستقبل ويمكن لفرد ما أن يكفر عن ماضيه بمختلف الوسائل، ولكن لا يجوز أن يحال بينه وبين الإيمان لأنه من طبقه الرأسماليين أو لواقعة نسب أو لشغل وظيفة، وفى الوقت نفسه فإن الإيمان سيحكم مستقبله بحيث يسير فى مسار مختلف تماماً عن ماضيه. وما كان هذا ليمكن عملياً لولا إن الإيمان يخلق الإنسان خلقاً جديداً. فالثورة الإسلامية تتحرر من لوثات الثورات الأوربية، وفى الوقت نفسه فإنها تصل إلى أعماق لا تصلها هذه الثورات وأى ثورة تفتح المعتقلات والسجون أو تلجأ إلى التعذيب أو تقمع الحريات وضمانات الحقوق فإنها لا تمت إلى الإسلام، وإنما إلى الفهم الأوربى للثورات فالثورة الأوربية تعُنى بإصلاح الأوضاع فتضطر للعنف، والثورة الإسلامية تعنى بإصلاح الفرد، فتلجأ إلى الإيمان .

ومن خصائص الثورية الإسلامية أن لا يأتى التشريع - اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا، إلا بعد الإيمان لأنه مع التسليم بأهمية هذا التشريع، فإنه ما لم يقم على إيمان فإنه لابد وأن يلوذ بوسائل القسر وفى النهاية تتحول الثورة إلى ديكتاتورية ...

**فإذا أريد تطبيق الشريعة مثلا، فإن هذا لا يجوز أن يحدث إلا بعد أن يؤمن الشعب بذلك وعندئذ تكون أحكام الشريعة إرادة شعبية فلا يحدث تعارض ما بين سيادة الشعب.. وسيادة الشريعة، وهذا هو ما حدث فى ثورة الإسلام الأولى. فإن الرسول لم يصل الحكم، ولم يبدأ التشريع إلا بعد أن آمن به الأنصار وطلبوا إليه ذلك وانتظروه على أبواب المدينة**

**ثلاث ليال.. وعندما جاء سلموا إليه الأمر فحكمهم بمحض إرادتهم وطبقاً لما آمنوا به .**

وعندما نقول أن ثورية الإسلام هى ثورة الإيمان، فكأننا نقول هى ثورة الحرية وثورة العقل لأنه لا إيمان إلا باختيار طوعى، ولا إيمان إلا بعد تفكير فثورة الإسلام هى ثورة الحرية.. وثورة العقل.. ولا ينفى هذا أن تكون قد انحرفت بعد الفترة النبوية والخلافة الراشدة. وقد شرحنا عوامل التحول لأن هذه العوامل لا تقوم على أصل من القرآن أو من الصحيح من السنة، وإنما هى رد فعل لتطورات حكمت المجتمع الإسلامى وقتئذ على ما شرحنا عندما تعرضنا لعوامل التحول .

إن لب الثورية القرآنية هو فهم القرآن وقد أوضحنا أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا بعد تحرير القرآن من إسار التفاسير، والنظر إليه فى ضوء الموضوعات الرئيسية فى الخطاب القرآنى، وإذا تم هذا فإنه هو التثوير الذى سيغير أوضاع المجتمع تغييراً جذرياً شاملاً بدون دماء وبدون محاكم ثورية وبدون معتقلات وإنما بفضل عمل يقوم على إيمان الجماهير بما جاء فى القرآن من القيم، ولما كانت الحرية والعدالة من أبرز هذه القيم، فإن هذا المجتمع سيسمح بتعددية لا يفصل بينها العنف أو الأثرة لأن من القيم الحاكمة فى هذا المجتمع التعاون فى مجال الاتفاق، وترك الفصل فى الخلاف إلى الله تعالى فى اليوم الآخر .

فثورية القرآن وإن توفر لها المقومات الثلاث للثورة كما ذكرنا فى الفصل الأول { النظرية - إرادة التغيير - مشاركة الجماهير } فإن الطابع العام لهذه الثورية هو الإيمان الذى يتفجر حرية وحيوية ومبادءة دون لواذ بحرب أو عدوان، وبهذا تتميز ثورية القرآن عن المجتمع الخامل وعن المجتمع العدوانى لأنها ثورية الإيمان، ثورية الفكرة ..

# فهرس



رقم الايداع بدار الكتب ١٨٧٩١ لسنة ٢٠٠٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-5378-32-x

# ملحق عن دعوة الإحياء الإسلامى




## " إيماننا "

-١-

نؤمن بالله. إنه رمز الوجود ورمز الكمال والعقل والغائية، وما ينبثق عنها من قيم، وبدونه يصبح الوجود عبثا، والكون تحت رحمة الصدفة الشرود، والإنسان حيوانا متطوراً أو " سوبر حيوان " .

والإيمان بالله الذى يكون قوة ملهمة هو ما يغرسه فى النفس تصوير القرآن الكريم لله تعالى، أما ما يرد فى كتب التوحيد فلا يغنى شيئاً، بل قد يضر.

-٢-

الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية، ويجب جعلهم المثل فى القيادة، وإطراح أحكام الطاغوت من قادة الجيش أو أباطرة أو ملوك الخ... وما وضعوه من سياسات القهر التى لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساءت إلى البشرية .

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المثلى لله والرسول. على أننا نفهم الصور التى قدمتها الأديان الأخرى، لأن الدين أصلا واحد، ولكن الشرائع متعددة، ونحن نؤمن بالرسل جميعاً، وأن الله تعالى أراد التعدد والتنوع (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة). وأن الفصل فى هذا التعدد هو إلى الله تعالى يوم القيامة .

-٣-

ونؤمن أن الدين هو المقوم الأعظم للمجتمع العربى، وانه يمثل التاريخ والحضارة والضمير، وأن تجاهله يقطع التواصل مع الشعب، ولا ينفى هذه الحقيقة أن تكون الفلسفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين فى المجتمع الأوربى فلكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدرة الذى لا يمكن التمرد عليه أو التنكر له، وفى الوقت نفسه - فإنه لا يحول دون تلاقح الأفكار وتحاور الحضارات، وتقارب الديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن .

ونؤمن بكرامة الإنسان، وأن الله تعالى هو الذى أضفاها على بنى أدم جميعا، فلا تملك قوة أن تحرمهم منها، وهى تعم الجنس البشرى من رجال ونساء، بيض وسود أغنياء وفقراء الخ... وقد رمز القرآن لهذه الكرامة بسجود الملائكة لآدم، وتسخير قوى الطبيعة له .

ولما كان الإسلام قد جاوز - كما ونوعا - الاتفاقيات الدولية عن حقوق الإنسان، فإن أقل ما يجب أن يتم هو التطبيق الفورى لهذه الاتفاقيات .

-٤-

لما كان القرآن قد جعل مبرر سجود الملائكة لأدم هو تملكه المعرفة التى تميز الإنسان عن بقية الكائنات، والتى تنقذه من الخرافة، فيفترض أن تكون المعرفة هدفا رئيسيا للمسلمين وما يتبع هذا ما استخدام العقل، وما يثمره من علم وحكمة. ويجب على كل نظام إسلامى أن يشيع الثقافة والمعرفة، ويفتح النوافذ عليها، ويهيئ كل السبل التى تيسر للجماهير معارف ومهارات العصر .

أننا لا نستطيع أن ندخل القرن الواحد والعشرين بأمية أبجدية .

-٥-

نؤمن بحرية الفكر، وأنها أساس كل تقدم، وأنه لا يجوز أن يقف فى سبيلها شئ ، ويكون الرد على ما يخالف ثوابت العقيدة بالكلمة لا بالمصادرة أو الإرهاب أو التفكير وليس هناك تعارض بين حرية الفكر المطلقة والدين لأن الدين يقوم على إيمان، ولا إيمان بدون اقتناع وإرادة ولا إرادة أو اقتناع إلا فى بيئة تسمح بالدراسة الحرة، والإرادة الطوعية والنظر الدقيق، وفى القرآن الكريم قرابة مائة آية تقرر حرية العقيدة بصفة مطلقة وأن مردها إلى الفرد نفسه مثل ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ ﴿ وقل الحق من ربك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ الخ ...

ولا توجد حرية الحرية إلا بتقدير حرية إصدار الصحف والمطبوعات وتكوين الأحزاب والهيئات والنقابات وبقية مؤسسات المجتمع، وحرية هذه الهيئات فى العمل لتطبيق أهدافها ما دام يتم بطرق سليمة .

ونحن نرفض تماما دعاوى التكفير والردة، ونكلها إلى الله تعالى يفصل فيها يوم القيامة، كما قرر القرآن ذلك وطبقته ممارسات الرسول .

أما ما قد ينشأ من أخطار، فإن الحرية نفسها تفسح المجال لإصلاحه.

-٦-

يجب أن يكون العدل أساس التعامل بين الحكام والمحكومين، الرؤساء والمرؤوسين، الرأسماليين والعمال، الرجال والنساء الخ... لأن كل ما يمت إلى عالم العمل والعلاقات لا يمكن أن يستقر إلا على أساس العدل ولا يجوز إعطاء فئات.. سلطات تمكنها من أن تحيف على حقوق فئات أخرى. إن هذا نوع من الظلم يماثل الكفر، ويجب أن لا يسمح به .

-٧-

إن التحدى العملى الذى يجابه الدول الإسلامية اليوم هو التخلف اقتصاديا وعسكريا وسياسيا واجتماعيا، ولا يمكن وقف هذا التخلف إلا بجعل " **التنمية** " معركة حضارية تتم تحت لواء الإسلام باعتبارها النمط المطلوب من " **الجهاد** " واستنفار كل أفراد الشعب للمشاركة فيها من وضع الخطة حتى متابعتها وتقييمها. ويجب أن تكون هذه التنمية إنسانية... تبدأ من محطة العدالة الممكن تحقيقها لتصل إلى محطة الكفاية المطلوب تحقيقها، إن الإيمان وحده هو الذى يولد الطاقة المجانية اللازمة ويوظفها لدفع التنمية وتجاوز المعوقات دون حاجة للاستثمارات التى تفسح المجال للتبعية والسير فى مسار وإسار الدول الكبرى .

وأى محاولة لتنمية تستسلم لادعاءات البنك الدولى أو تقلد النماذج الأوربية والأمريكية لن تسفر إلا عن مزيد من التخلف والفاقة والتخبط .

وبالمثل فإن أى محاولة لتنمية يضعها خبراء أو حكومات دون أن يكون لها الأساس الإيمانى والمشاركة الجماهيرية أو تستهدف مصلحة الأقلية على حساب الجماهير العريضة هى تنمية محكوم عليها بالفشل .

-٨-

إن الصورة النمطية لشخصية المسلم التى تتسم عادة بالسلبية والماضوية والتركيز على الطقوس والشعائر ليست هى صورة المسلم أيام الرسول، ويعود هذا الاختلاف إلى أن قصر مدة الرسالة النبوية الراشدة (٥٠ سنة) لم تكن كافية لتعميق جذور الشخصية الإسلامية. ثم جاء الملك العضوض، وتدهور الخلافة وسد باب الاجتهاد لأكثر من ألف عام، وغلبة الجهالة والاستبداد الخ... وتمخض هذا كله عن الصورة المعروفة اليوم والتى تتقبلها وتبقى عليها المؤسسات الدينية والنظم الحاكمة لأسباب تتعلق بالقصور... أو الإبقاء على المصالح المكتسبة .

ونحن نرفض هذه الصورة، ونعمل لإحياء إسلامى .

-٩-

لا يمكن تحقيق أى إحياء إلا بالعودة رأسا إلى القرآن الكريم، وضبط السنة بضوابط وعدم التقيد بما وضعه الأسلاف من فنون واجتهادات تأثروا فيها بروح عصرهم وسيادة الجهالة واستبداد الحكام وصعوبات البحث والدرس، وانعكس هذا على تفاسير القرآن وأحكام الفقه وفنون الحديث وأقحم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام .

لقد كان الإسلام أصلا دعوة لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، وإحلال " الكتاب والميزان " أى المعرفة والعدل محل الجهالة والظلم واساغة قيمّ الخير، والعدل، والحرية، والعلم الخ... التى هى روح الإسلام بينما تكون الطقوس والشعائر هى جسم الإسلام والاقتصار عليها - دون القيم - هو احتفال بجسم لا روح فيه .

**بالنسبة لدعوة الإحياء الإسلامى، فليس المهم الآن تفسير القرآن، ولكن تثوير القرآن.. وهو ما دعا إليه الرسول وطبقه الصحابة، فإنهم لم يعكفوا على تفسير القرآن. وإنما هبوا كإعصار ليقوموا بأكبر حركة تغيير فى العالم القديم .**

-٢٠-

هناك حقيقة تصل إلى مستوى البدائه، وإن أخفتها الغشاوات الكثيفة. تلك هى أن على كل جيل أن يعيش عصره دون الإخلال بالقيم العظمى للإسلام – إن التطور الاجتماعى للأمم والشعوب هو كالنمو الجسدى للأفراد لا يمكن أن يقاوم - فضلاً عن أنه علامة صحة وتطبيق لعالمية الإسلام وموضوعيته وصلاحيته لكل زمان ومكان .

إن الإسلام لا يحتكر - وحده - الحكمة، ولكنه ينشدها أنّا وجدها، وهو يتقبل كل الخبرات - كما أنه يقدم خبراته ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ من هنا فإن النزعة الماضية الانعزالية واتخاذ نمط المجتمع الذى كان موجوداً من قبل باعتباره النمط الأمثل، والضيق بكل مستجدات العصر من فنون وأداب، والنظرة المتخلفة للمرأة وحبسها وراء الأسوار.. كل هذا يخالف جوهر الإسلام... وعالميته، وصلاحيته لكل زمان ومكان. كما أنه يخالف ما أراده الله تعالى عندما قال ﴿يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم، أن الله عليم خبير﴾ .

وليس هناك خوف من أن يذوب الإنسان فى الحضارة العصرية، لأن خيطاً وثيقاً يربطه بالله والرسول يبقى له قدرا من القيم يكبح جماحه ويحول دون انفلاته وذوبانه .



# الموقف من الثوابت

من الطبيعى أن يكون لموضوع الثوابت أولوية وصدارة لأن المفهوم من التعبير أنه يعنى القضايا المسلم بها إما بحكم النص القرآنى الصريح الذى لا يقبل تأويلا أو التجربة والخبرة التى تثبت على مر الأجيال وسلم بها الناس ولم تعد تثير جدلا أو تساؤلا الخ... وإن هذه الثوابت هى أسس وأصول العقيدة .

من أجل هذا فإن معظم المفكرين الإسلاميين يميلون لاستثناء الثوابت من إطار حرية الفكر فما دامت ثوابت فالمفروض أن تعمل لتدعيمها وترسيخها لا أن تجعلها عرضة للمساءلة والمناقشة .

وقد كان - وما يزال - لنا رأى وهو أن الثوابت هى أجدر الموضوعات بالمناقشة فإنها تصدئ أو تتوثن وأن مناقشتها لا توهنها، وإنما تعطيها حياة جديدة وتكفل لها معايشة العصر. كما تحول دون أن تتطرق إليها الخرافة بحكم التوثين والتقديس .

**مع هذا، فإن من الخير دائما أن نحدد أمرين ..**

**أولهما :** ما هى هذه الثوابت على وجه التعيين .

**ثانيا :** ما هو الموقف من الثوابت .

## ما هى الثوابت :

**أولا:** ذات الله تعالى وطبيعته فهذه ما لا يمكن للعقل البشرى أن يصل إليها، وأى محاولة لذلك تزج بالإنسان إلى غير طائل بل تسلمه إلى الضلال، ونحن نرفض مجرد التفكير فيها، ونأخذها كما عرضها القرآن ولا نلحق بها ما يضيفونه إليها من أحاديث أو من تأويلات خاصة لآيات الصفات التى مزقت المسلمين، وكان لهم عن هذا مندوحة فالقرآن الكريم تحدث عن اليد فقال ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ ٤٦ سبأ. وقال ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ ٣١ سبأ. فهل يمكن القول إن للعذاب يدا، أو للقرآن يدا لا تشبه أيدى الناس كما يقول الوهابيون..

وهذا أكبر دليل على خطأ الاجتهاد فيما يتعلق بالله تعالى فإن هـذا الاجتـهاد كاد أن يصلهم بالمجسمة .

ومن الناحية المقابلة، فنحن نستبعد الأخـذ بأسلوب علـم الكـلام للاستدلال على وجود الله أو إثبات صفاته، فهو أسلوب غريـب علـى روح الإسلام لأنه يعود إلى روح فلسفات لا تؤمن بالله أصلا، ولا تؤمن بالإسـلام ولذلك تصدر أحكامها على الله تعالى من منطلق فهمها الإنسانى، وقد قلنـا إن الفهم الإنسانى يعجز عن الولوج إلى هذه المنطقة، وقد تطرقت إلـى علمـاء الكلام هذه النظرة دون أن يشعروا .

ولا نجد فى قضية القضاء والقدر وجـبر الإنسـان أو اختيـاره أى مشكلة لأنها تتعلق بعلم الله الذى لا نستطيع أن نحده ونخطئ لو حكمنا عليـه بعلمنا ولأن المشيئة الإلهية، وإن كانت مطلقة شاملة ودون قيـد أو شـرط، ومما لا يمكن أن نحيط بأقطارها، فإنه - تعالى - بالنسبة للأرض والإنسـان ولمجتمعه بلور مشيئته فى سنن ومبادئ " كتبها على نفسه " بتعبير القـرآن، وجعلها هى المناط فى تسيير هذا الكون وليس هناك ما هو أصرح من الآيـة ﴿ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ﴾ فقد ربط ما بين مشـيئته " والأجـل " وكذلك ﴿ لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا مـا بأنفسـهم ﴾ فربـط مشـيئته بتصرف القوم أولا، وندد القرآن بالذين قالوا ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ .

وفى عديد من الآيات أوضح القرآن أن الله تعالى خلق الإنسان عقـلا يميز بين الحسن والقبيح وأرسل إليه الأنبياء، وأنزل معهم الكتـب المقدسـة ليعرفه على الخير والشر، وليستكمل له ما يعجز العقل عنـه ومنحـه إرادة حرة يختار بها ما يشاء وهو ما يثيبه إذا أحسن الاختيار، ويعاقبه إذا أساء أمـا كيفية علاقة هذا بعلم الله تعالى السابقة وكيف تتلاءم الحرية مع علمه فهذا مـا لا نشغل أنفسنا به، لأننا لا نحيط به. وكل الانحرافات والتعسفات فى العقيـدة إنما جاءت من محاولة الحكم على الله تعالى بمقتضى الفهم الإنسانى.. مع أنه تعالى قال ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ وأى محاولة للاختراق لابد وأن تنتـهى بالضلال والانحراف .

**ثانيا:** يلحق بذات الله تعالى عالم الغيب بدءا من الموت حتى الدخـول فى جنة أو نار. فنحن نؤمن بها كما جاءت فى القرآن، ولا نضيف عليها مـا جاء فى معظم الأحاديث لأن عالم الغيب هو ما استأثر الله به ومن ثـم فـلا يكون موضوعا لأحاديث تعلن على الناس، ونحن لا نجهد أنفسنا فى تفـاصيل

ما جاء فى القرآن عنه لأن ما أراده القرآن هو الانطباع العام، ولكننا لا نستبعد أن يكون معظم ما جاء عنه هو باب المجاز الذى يؤثره القرآن عند الحديث عن هذه المجالات ليتحقق الصدق الفنى الذى يلجأ إليه لتكثيف المعنى كما نقول هو بحر السخاء، وأسد فى الشجاعة، وليس هو بحراً، ولا أسداً، ولكن رجلا.. ولكننا ندع لكل واحد أن يفهم ما يطمئن إليه فؤاده دون محاجاة، أو محاولة لحمل الآخرين على الأخذ به .

**ثالثا: القرآن الكريم :** نؤمن بأن القرآن الكريم هو توجيه الله تعالى الذى أوحى به الرسول، ونحن نتقبله ونرى أنه الحق الذى لا يتطرق إليه باطل، ونستبعد كل ما حشيت به التفاسير وما أورده بعض الأسلاف من أقوال تحذف أو تضيف، كما نستبعد النسخ فى القرآن وكذلك أسباب النزول ولا نرى لها حاجة إلا التطفل على النص وإيجاد إيحاءات مضللة رغم القول إن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب .

ولا يعنى تقديسنا للقرآن واعتباره من الثوابت ألا نعمل الفكر فيه، لأن هذا هو ما يوجبه القرآن نفسه علينا، والنظر فى القرآن ككل هو ما يقربنا إلى روح القرآن ومضامينه العامة التى نستلهمها فى وضع القواعد واستنباط الحكام مما قد يجعلنا نجمد نصا لأن العلة التى وضع لأجلها انتهت وهو ما تنبه له عمر بن الخطاب فى بعض اجتهاداته .

وبالطبع فنحن لا نعتبر تفسيرات المفسرين من الثوابت، بل نرى أنها شغلت الفكر بتفاصيل وحكايات ملفقة بعيدة عن اللب والجوهر فى القرآن، وبهذا أساءت إليه وجنت عليه .

ونحن لا نعتبر أن من الثوابت أحكام المذاهب وأقوال الفقهاء، بل حتى أقوال وأعمال الصحابة بمن فيهم الخلفاء الراشدون، إننا قد نستأنس بها ولكننا لا نراها من الثوابت الملزمة .

**رابعا: السُنَّة :** تعد السنة أيضا من الثوابت بعد ضبطها بضوابط القرآن وإن كان هذا سيجعلنا نتوقف أمام العديد من الأحاديث التى تضمنتها المسانيد وكتب الصحاح "بما فى ذلك صحيحا البخارى ومسلم" فإننا من ناحية مقابلة نأخذ بما أعتبره الفقهاء ليس تشريعا من السنة مثل المبادئ والممارسات التى أرساها الرسول كقائد جيش ورئيس دولة كما أن شخصية الرسول تستأثر بأهمية كبرى وتظل خالدة دائما. إن القرآن عندما قال: ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ فإنه كان يرسى مبدأ من أهم المبادئ وأكثرها تأثيرا فى الحياة والمجتمع - هو الأسوة والقدوة - وهو مبدأ لا تشير

إليه الكتابات الأوربية التى تغنى بالنظام والسياسات فى حين أنـه يمكـن أن يغنى عما يضعونه من ضمانات وما يستهدفونه من غايات .

**خامسا:** ومن الثوابت الشعائر العباديـة التـى فرضـها الله وهـى الصلوات الخمس كل يوم، وصيام رمضان شهرا فى السنة، والزكاة كل عـام، والحج لمن استطاع إليه سبيلا مرة واحدة .

وهذه هى العبادات التى يجب أن يقوم بها المسلم قياما حسنا فيه النيـة وفيه الخشوع وحضور القلب. أما السنن والنوافل سواء كانت فى الصـلاة، أو الصيام أو الحج والعمرة، فمن الخير أن يدخر المسلم وقته وجهده لما أصبـح أكثر أهمية من عمل فى القضية العامة .

ولرب قائل يقول: هل تحجر على مشاعر الذين يجدون أنفسهم تـهفو للصلاة، ويحسون الطمأنينة والراحة وهم يتهجدون بالليل؟ فنقـول نحـن لا نحجر على من يستشعر هذا أن يقوم بما يشاء من تهجد وصلاة ولكننا نتحدث عن عامة الناس، ومن ناحية المبدأ أما بالنسبة للآحاد، فلكل أن يتبع ما يتفـق مع نفسه ولكننا نفضل ما ذهبنا إليه للعامة تخفيفـا عنـهم وحرصـا علـى الأولويات .

وعندما أوجب الإسلام أداء هذه الشعائر والعبادات فإنه فـى الوقـت نفسه أوجد تيسيرات ورخصا مثل الجمع بين صلاتيـن فـى الحضـر عنـد الضرورة ومثل المسح على الجوربين، والتيمم عند انعدام المـاء، والإفطـار للسفر وإفطار المسن الذى لا يطيق الصيام وبعض التيسيرات مما جـاء بـه القرآن الكريم والآخر مما جاءت به السنة، ونحن نـأخذ بـها لأن الرسـول رحمة للعالمين ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ ﴿ لو يطيعكم فى كثير مـن الأمـر لعنتم ﴾ ولأن التيسيرات أصل من أصول الإسلام فليس فـى الأخـذ بـهذه الرخص شبهة .

بعد كل هذا كله إذا فات فرد أداء بعض هذه الواجبات فهناك صـور عديدة لإصلاح هذا مثل الاستغفار وعمل الصالحات والإنفاق والتوبة - وهـى ممارسات تصلح لتعويض ما قد يطرأ لأحد فيؤدى إلى عـدم قيامـه بـأحد الفروض دون تمييز، بمعنى أن ذلك ينطبق على الصلاة أيضا، فإن القداسـة الخاصة للصلاة ليست أعلى من التوبة والاستغفار وفعل الحسنات ..





# تثوير القرآن

جاءت الإشارة إلي تثوير القرآن في آثر نبوي بتعبير «أثيروا القرآن» و«ثوروا القرآن» والفكرة هي أن القرآن عند إنعام النظر في معانيه وتشرب الأذن لنظمه يضرم في النفس أوار الثورة، والانتهاض والتغيير، كما أنه يوفر للثورة أهم مقوم وهو «النظرية» التي تسمو عند المؤمنين إلي مستوي العقيده.

وحقق القرآن ثورته الأولي عندما اقتلع الأوضاع الجاهلية في جزيرة العرب وأحل محلها الإيمان وما يمليه هذا الإيمان من أوضاع.

ومن المؤسف إن عوامل عديدة عملت لتفريغ القرآن من مضامينه الثورية ليصبح أداة حفاظ تتسق مع أوضاع «الملك العضوض» وروح عصره.

وقد أبرز الكتاب ثلاثة عوامل قامت بهذا الدور أولها تفسير القرآن تفسيرا أودي بمعانيه الثورية وجعله كتاب معلومة لا كتاب هداية. فضلا عما تطرق إلي هذه التفاسير من خرافات وإسرائيليات تخالف العقل، والعامل الثاني التخلي عن المنهج القرآني التحرري الثوري والأخذ بمنهج نقلي تقليدي استخدمت فيه أحاديث موضوعه، وأخيرا فقد أدمجت في العقيدة مفاهيم لاهوتية مثل علم الكلام وقضايا جدلية مثل الصفات وغيرها مزقت وحدة الأمة.

ويعالج الفصل الثالث «تثوير القرآن» في نبذتين مسهبتين الأولي: تحت عنوان «لماذا» وهنا ينتقل الكتاب من المعالجة الدينية المجردة إلي الواقع المصري والحاجة الماسة لثورة تعيد المياه إلي مجاريها بعد أن انحرف بها انقلاب ٢٣ يوليو. ولكن لابد أولا من تثوير القرآن وتخليصه من الغشاوات. وإلا فستكون تجربة فاشلة وخيبة جديدة تضاف إلي خيبات تجارب الحكم الإسلامي.

أما النبذة الثانية فتعالج «كيف» وهنا يضع الكتاب الطريقة المثلي للنظر إلي القرآن واستلهامه طبقا للمحاور والموضوعات الرئيسية في القرآن مثل الله تعالي، واليوم الآخر والرسل والإنسان فردا ومجتمعا والكون وإعمال العقل وأخيرا استلهام القيم. فعندما توضع الآيات التي تعالج كل موضوع من هذه الموضوعات جنبا إلي جنب وينظر فيها فإنها تحدث الأثر الثوري الذي ينشده القرآن.

دار الفكر الإسلامي

الثمن ٥ جنيهات

الغلاف: أحمد اللباد